هل الخوارج من العراق..؟

د. مجيد الخليفة



هل الخوارج من العراق..؟

منشورات الإلكترونية

١٤٤٨-٢٠٢٦

هل الخوارج من العراق..؟

د. مجيد الخليفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن الحديث عن الخوارج ليس حديثًا عن فرقة ظهرت في التاريخ الإسلامي ثم انقضى أثرها، وإنما هو حديث عن ظاهرة فكرية وتاريخية كان لها حضور مؤثر في أحداث القرن الأول الهجري، وارتبط ظهورها بجملة من الظروف السياسية والاجتماعية والفكرية والجغرافية التي تحتاج إلى دراسة متأنية، تجمع بين علم الحديث والتاريخ والجغرافيا ودراسة الفرق والمذاهب.

ومن أكثر المسائل التي تحتاج إلى تحرير في هذا الباب مسألة الموطن الذي نشأت فيه ظاهرة الخوارج، وهل يصح القول بأن الخوارج من العراق، أم أن العراق كان ميدانًا مهمًا من ميادين نشاطهم بعد ظهورهم، وليس بالضرورة موطن نشأتهم الأولى؟.

وهذه المسألة، وإن بدت للوهلة الأولى سؤالًا تاريخيًا بسيطًا، إلا أن الإجابة عنها تتطلب الوقوف على عدد من القضايا المتداخلة؛ في مقدمتها: ما المقصود بالعراق في المصادر القديمة؟ وما حدوده؟ وما دلالة اسمه؟ وكيف كانت أوضاعه قبل الفتح الإسلامي؟ ومتى دخل في الدولة الإسلامية؟ وكيف نشأت

أمصاره الإسلامية؟ وفي المقابل: ما المقصود بنجد في النصوص القديمة والحديثية؟ وما حدود أرض نجد؟ وكيف وصفها الجغرافيون؟ وكيف استعمل المحدثون هذا الاسم؟ وما موقعها في التاريخ الإسلامي؟.

ثم يأتي السؤال الأهم: ما العلاقة بين هذه الجغرافيا وبين نشأة الخوارج؟ وهل كانت البيئة التي ظهر فيها أوائل الخوارج هي البيئة العراقية نفسها؟ أم أن عناصر أخرى، كبيئة الأعراب، كانت ذات أثر في نشأة الظاهرة؟ ومن هم أوائل قادة الخوارج ورجالاتهم؟ وأين ظهروا؟ وكيف انتقلت حركتهم إلى العراق؟ ولماذا أصبح العراق، ولا سيما الكوفة والبصرة، من أبرز مواطن وجودهم ونشاطهم؟.

ومن أجل الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بد أولًا من تحرير مفهوم العراق نفسه؛ إذ إن استعمال هذا الاسم في المصادر التاريخية والجغرافية لا ينبغي أن يُحمل مباشرة على الحدود السياسية للعراق في العصر الحديث. فالعراق اسم ذو مدلول تاريخي وجغرافي تطور استعماله عبر العصور، ومن ثم يبدأ البحث بدراسة تسمية العراق وحدوده، ثم بيان حدوده الجغرافية، والوقوف على حاله قبل الفتح الإسلامي، ثم دراسة الفتح الإسلامي للعراق، وما ترتب عليه من تحولات سياسية وإدارية واجتماعية.

كما أن تمصير الأمصار بالعراق يمثل مرحلة مهمة في فهم تكوين البيئة الإسلامية فيه؛ فظهور الكوفة والبصرة وغيرها من الأمصار لم يكن مجرد حدث

عمراني، وإنما ترتبت عليه آثار سياسية واجتماعية وعلمية، وأصبحت هذه الأمصار مراكز رئيسة في الدولة الإسلامية، ثم كان لها دور كبير في أحداث الفتن والفرق في القرن الأول الهجري.

وفي مقابل ذلك، يحتاج مصطلح نجد إلى دراسة مستقلة؛ لأن كثيرًا من الإشكالات التي نشأت حول بعض أحاديث الفتن ترجع إلى اختلاف التصور في تحديد المراد بنجد ، ولذلك يبحث الكتاب في أرض نجد، ثم يتتبع استعمال اسم نجد عند الجغرافيين، ويقارن ذلك باستعماله عند **المحدثين**، ثم ينظر في موقع نجد في التاريخ، حتى يمكن تحديد مدلولها الجغرافي والتاريخي بعيدًا عن إسقاط الحدود الحديثة على المصطلحات القديمة.

وبعد ضبط هذين المصطلحين :العراق ونجد، ينتقل البحث إلى دراسة الخوارج أنفسهم؛ فيتناول الأصول الفكرية للخوارج، والظروف التي أسهمت في ظهور أفكارهم، ثم يبحث في الأعراب بوصفهم حاضنة للخوارج وما ورد في النصوص التاريخية والحديثية في هذا الباب، ثم يتتبع قادة الخوارج ورجالاتهم، مع محاولة تحديد مواطنهم ومراحل ظهورهم وانتقالهم.

ثم تأتي دراسة الخوارج في العراق لتبحث في حقيقة وجودهم في هذا الإقليم، ومتى بدأ، وما العوامل التي جعلت العراق مركزًا مهمًا لهم، وصولًا إلى السؤال الذي يمثل محورًا رئيسًا في هذا الكتاب :لماذا العراق؟.

فإذا كان العراق قد أصبح في مرحلة مبكرة مركزًا مهمًا للخوارج، فما تفسير ذلك؟ هل يرجع إلى أن الخوارج نشؤوا فيه أصلاً؟ أم إلى طبيعة العراق السياسية والاجتماعية بعد الفتح؟ أم إلى نشأة الأمصار الكبرى فيه، وما اجتمع فيها من القبائل والجند وأهل الأمصار؟ أم أن وجود الخوارج في العراق كان نتيجة لاحقة لانتقال الحركة إليه من بيئة أخرى؟.

وهنا تأتي السنة النبوية بوصفها مصدرًا أساسيًا في دراسة هذه المسألة؛ ولذلك أفرد الكتاب فصلاً خاصًا لدراسة العراق في السنة النبوية، يبدأ بالنظر في العراق في العهد النبوي قبل الهجرة، ثم العراق في العهد النبوي بعد الهجرة، ثم يتتبع ما ورد في صريح السنة من ذكر للعراق أو الإشارة إليه، ويفرق بين النصوص التي جاء فيها اسم العراق صراحة، وبين النصوص التي استُدل بها عليه بطريق التفسير أو الاجتهاد.

وهذا التفريق ضروري؛ لأن إثبات وجود ذكر للعراق في بعض الروايات شيء، وإثبات أن لفظًا آخر، كالمشرق أو نجد، يراد به العراق شيء آخر يحتاج إلى دليل مستقل. كما أن صحة الحديث من جهة الإسناد لا تعني بالضرورة صحة كل استدلال يُبنى عليه؛ إذ لا بد من دراسة اللفظ والرواية والطرق والسياق والدلالة الجغرافية والتاريخية مجتمعة.

كما يتناول هذا الفصل العراق عند الخلفاء الراشدين؛ لأن معرفة مكانة العراق في عهد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم تكشف مقدار

حضوره في الدولة الإسلامية الأولى، فالاهتمام بالعراق لم يكن عسكريًا فقط، وإنما شمل الإدارة والقضاء والاقتصاد والخراج والعمران وتنظيم الأمصار، ثم بلغ العراق منزلة سياسية بارزة حين أصبحت الكوفة مقرًا للخلافة في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ومن خلال هذه المسارات الأربعة :العراق، ونجد، والخوارج، والسنة النبوية، يحاول الكتاب أن يجمع أطراف المسألة في دراسة واحدة؛ فلا يُبحث الخوارج بمعزل عن جغرافيتهم، ولا تُدرس الجغرافيا بمعزل عن النصوص، ولا تُفهم النصوص بمعزل عن اصطلاحات أهل الحديث والجغرافيا والتاريخ.

كما يحرص البحث على التمييز بين موطن النشأة وموطن النشاط والانتشار؛ إذ إن وجود الخوارج في العراق، وكثرة أحداثهم فيه، لا يكفي وحده لإثبات أن العراق هو موطن نشأتهم الأولى. فلابد من تتبع البدايات، والنظر في أول ظهور للظاهرة، ومواطن رجالها وقادتها، ثم دراسة انتقالها وانتشارها، ومقارنة ذلك بالمعطيات الجغرافية والتاريخية والنصوص الحديثية.

ولذلك فإن السؤال الذي يحمله عنوان الكتاب:

هل الخوارج من العراق؟!.

ليس سؤالًا يراد به مجرد إثبات وجود الخوارج في العراق أو نفيه، فهذا الوجود ثابت تاريخيًا، وإنما المراد هو البحث في أصل النشأة والبيئة الأولى،

ومعرفة ما إذا كان العراق هو الموطن الذي خرجت منه ظاهرة الخوارج، أم أن الأمر يحتاج إلى تفصيل يميز بين مرحلة النشأة ومرحلة الانتشار والتمركز.

وقد اعتمد البحث في ذلك على ما أمكن جمعه من المصادر الحديثية والتاريخية والجغرافية، مع الاستفادة من كتب الفرق والتراجم، ومقارنة الروايات بعضها ببعض، والنظر في اختلاف ألفاظها وأسانيدها، وعدم الاكتفاء برواية واحدة إذا كان للحديث أو الخبر طرق متعددة.

وإن من أهم ما يسعى إليه هذا الكتاب كذلك تحرير المصطلحات قبل بناء النتائج عليها؛ فالكلام عن العراق يقتضي معرفة حدوده ومدلوله عند المتقدمين، والكلام عن نجد يقتضي معرفة أرضها واستعمال اسمها عند الجغرافيين والمحدثين والمؤرخين، والكلام عن الخوارج يقتضي معرفة أصولهم الفكرية وأوائل رجالهم وقادتهم، والكلام عن السنة النبوية يقتضي التمييز بين النص الصريح والاستدلال القائم على التفسير والاجتهاد.

ومن هنا جاءت خطة الكتاب في أربعة فصول مترابطة:

فالفصل الأول يبحث في التعريف بالعراق من خلال تسمية العراق وحدوده، وحدوده الجغرافية، والعراق قبل الفتح الإسلامي، والفتح الإسلامي للعراق، ثم تمصير الأمصار فيه.

والفصل الثاني يتناول التعريف بنجد، من خلال أرض نجد، ونجد عند الجغرافيين، ونجد عند المحدثين، ونجد في التاريخ.

والفصل الثالث يبحث في العراق والخوارج، من خلال الأصول الفكرية للخوارج، والأعراب بوصفهم حاضنة للخوارج، وقادة الخوارج ورجالاتهم، ثم الخوارج في العراق، وصولًا إلى بحث السؤال :لماذا العراق؟.

أما الفصل الرابع فيتناول العراق في السنة النبوية، من خلال العراق في العهد النبوي قبل الهجرة، والعراق في العهد النبوي بعد الهجرة، والعراق في صريح السنة، ثم مكانة العراق واهتمام الخلفاء الراشدين به.

وبهذا يحاول الكتاب أن يقدم للقارئ دراسة تجمع بين الجغرافيا والتاريخ والحديث ودراسة الفرق، وأن يضع القضية في إطارها الزمني والجغرافي الصحيح، بعيدًا عن الأحكام المسبقة، وعن إسقاط التصورات الجغرافية والسياسية الحديثة على نصوص ومصطلحات تنتمي إلى عصور مختلفة.

ولا أدعي في هذا العمل العصمة من الخطأ، وإنما هي محاولة للبحث والنظر والمقارنة، فإن أصبت فمن الله وحده، وإن أخطأت فمن نفسي، والله ورسوله بريئان منه.

وأسأل الله تعالى أن يوفقني للحق والصواب، وأن يجعل هذا العمل نافعًا للباحث والقارئ، وأن يرزقنا الإنصاف في قراءة تاريخ أمتنا، والدقة في فهم نصوصها، والعدل في الحكم على أحداثها ورجالها.

وصلِّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

الفصل الأول

التعريف بالعراق

المبحث الأول
تسمية العراق

تسمية العراق :

للعراق تسميات عدة، وردت في أرث الحضارات التي تعاقبت على هذا البلاد ، منها (أوروك) ، و(بلاد سومر) و (بلاد أشور) و (بلاد ما بين النهرين)، أما تسمية (العراق) فقد أختلف الباحثون في إرجاع أصل هذه التسمية ،وقد حصرها الباحث المعروف طه باقر بثلاثة احتمالات[(١)] :

الأول : إن اسم العراق عربي أصيل ، ويعني الشاطئ ، أي شاطئ البحر أو سيف البحر، قال البكري : « وأهل الحجاز يسمون ما كان قريباً من البحر عراقاً»[(٢)] ، وذلك لدنوه من البحر (الخليج العربي) ؛ أو لأنه على شاطئ دجلة والفرات شرقاً وغرباً ، وذكر الماوردي أن العراق معناه الاستواء : «فسموا خضرة العراق سواداً، وسمي عراقاً؛ لاستواء أرضه حين خلت من جبال تعلو وأودية تنخفض، والعراق في كلام العرب هو الاستواء »[(٣)].

---

(١) من تراثنا اللغوي : ص ١٩٢ .

(٢) معجم ما استعجم : ٩٢٩/٢ ؛ ياقوت الحموي (معجم البلدان : ٩٣/٤) .

(٣) الأحكام السلطانية : ٢٥٩.

الثاني : منهم من ذهب إلى أن أصل العراق فارسي معرب ، ويعني الساحل (وهو ايراه أو يراك الذي عُرِب إلى إيراق وعراق) ، وإن كنا نعتقد أن هذه التسمية إن صحت ، فإنما هي تسمية الفرس للعراق ، لأنهم يحرفون القاف إلى كاف .

الثالث : إن لفظ (العراق) يرجع مستمد من تراث لغوي من العراق القديم، وخلاصته : أن لفظ (عراق) مشتق من الكلمة السومرية (أوروك) وتعني المستوطن ، وهي الكلمة التي سميت بها المدينة السومرية الشهيرة (أوروك) أو (الوركاء) ، وقد حقق المؤرخ (أومستيد) إلى أن أول ورود لكمة (عراق) كان في العهد الكشي (منتصف الألف الثاني قبل الميلاد) ، في وثيقة تاريخية يرجع زمنها إلى حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، وجاء فيها اسم إقليم على هيئة (إيريقا) الذي صار – على ما يرى الباحث المذكور – الأصل العربي لكلمة العراق أو بلاد بابل .

وأوضح استعمال لكلمة العراق بدأ في العهود الأخيرة من حكم الدولة الساسانية (٢٢٤-٦٥١م) ، ما بين القرنين الخامس والسادس للميلاد ، وبدأ استعماله يظهر في الشعر الجاهلي ، من ذلك قول أمرئ القيس (وفاته بحدود ٥٤٠م) :

فَمَا مَلِكُ العِرَاقِ عَلى المُعَلى بِمُقْتَدِرٍ وَلا مَلِكُ الشّام[1]

ومنه أيضاً قول طرفة بن العبد (وفاته ٥٦٤م = ٦٠ سنة قبل الهجرة):

تَرَحّلَ مِنْ أرْضِ العرَاقِ مُرَقِّشٌ على طَرَبٍ، تَهْوي سِراعاً[2]

وعند مبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، كان مسمى العراق شائعاً في جزيرة العرب ، فقد ورد في قصة هجرته عليه الصلاة والسلام من مكة إلى المدينة ، أنه التقى بشيخ من العرب فسأله ممن هما ؟ فقال له عليه الصلاة والسلام : « **نحن** من ماء، ثم انصرف عنه، قال يقول الشيخ: ما من ماء، أمن ماء العراق؟ »[4] ، وورد للعراق ذكرٌ في غزوة ذي قرد ، والتي حدثت بعد معركة بدر ، فقد روى البيهقي بإسناده عن ابن إسحاق قال : « أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من بدر بالمدينة ستة أشهر ، ثم بعث زيد بن حارثة إلى ذي القصة ، فأصابوا عيراً لقريش فيها أبو سفيان على القردة– ماء من مياه نجد– وكان من حديثهاً ، أن قريشاً كانت قد خافت طريقها التي كانت تسلك الشام حين كان من وقعة بدر ما كان، فسلكوا طريق العراق ، فخرج منهم تجار ، فيهم أبو سفيان

---

(١) الديوان ١٥٣ .

(٢) الديوان ٦٤.

(٣) الديوان ٦٤.

(٤) سيرة ابن هشام : ٦١٦/١ .

ابن حرب ومعه فضة كثيرة- وهي عظم تجارتهم- واستأجروا رجلاً من بكر بن وائل ، يقال له : فرات بن حيان يدلهم على الطريق فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً ، فلقيهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العير وما فيها، وأعجزته الرجال هرباً ، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم » [(١)] .

ومما جاء في السنة أيضاً ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه ، قال: قال رسولُ الله - صلَّى الله عليه وسلم -: « **مَنَعَتِ العراقُ قَفِيزَها ودِرهَمَها، ومَنَعتِ الشَّامُ مُديَها ودينارَها..** » الحديث[(٢)] .

وفي عصر الخلافة الراشدة ، أصبح العراق هو الاسم الأكثر شهرة وتداولاً، حتى حدد لهم الخليفة الراشد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميقاتاً مستقلاً للحج ، فقد جاء في صحيح البخاري : من حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: « لما فتح هذان المصران ، أتوا عمر رضي الله عنه ، فقالوا: يا أمير المؤمنين : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حد لأهل نجد قرناً ، وهو جور عن طريقنا، وإنا إن أردنا قرناً شق علينا، قال: فانظروا حذوها من طريقكم، فحد لهم ذات عرق»[(٣)].

---

(١) البيهقي (دلائل النبوة : ٣/ ١٧٠) .

(٢) صحيح مسلم (٢٨٩٦) .

(٣) الصحيح رقم (١٥٣١) ، ويبعد حالياً مسافة ٩٠ كم عن مكة المكرمة .

ونضيف إلى ذلك أن اسم العراق أطلق مفرداً وجمعاً على مصرين استحدثنا بعد الفتح الإسلامي ، فكان العرب يقولون : العراقان دلالة على المصرين البصرة والكوفة ، أما المصطلح الثاني الذي اختص به العرب دون غيرهم في تسمية العراق به فهو (أرض السواد) وفي تسميته سواداً ثلاثة أقاويل[1] :

أحدها : لكثرته مأخوذ من سواد القوم إذا كثروا ، وهذا قول الأصمعي .

والثاني : لسواده بالزروع والأشجار : لأن الخضرة ترى من البعد سواداً ، ثم تظهر الخضرة بالدنو منها ، فقالوا المسلمون حين أقبلوا من بياض الفلاة : ما هذا السواد ؟ ، فسموه سواداً.

والثالث : لأن العرب تجمع بين الخضرة والسواد في الاسم ، قال أبو عبيدة : ومنه قول الشاعر :

رَاحَتْ رَوَاحًا مِنْ زَرُودٍ فَصَادَفَتْ ... زِبَالَةَ جُلْبَابًا مِنَ اللَّيْلِ أَخْضَرَا

يعني : أسود[2] .

---

(١) محمد محاسنة : الفتح الإسلامي في العراق : ٢٠ .

(٢) الجاحظ ، الرسائل : ٢٠٧/١ ؛ أبو الفرج الأصبهاني (الأغاني : ٣٧٦/١٦) .

المبحث الثاني
حدود العراق

حدود العراق :

نظرًا للعمق الحضاري والتاريخي الذي تميزت به أرض العراق، وتعاقب الحضارات والإمبراطوريات عليها منذ أقدم العصور، فقد تعددت الأسماء والتسميات التي أُطلقت على هذا الإقليم، الأمر الذي يجعل من الصعب وضع حدود جغرافية ثابتة له عبر التاريخ؛ إذ كانت حدوده تتغير تبعًا للتحولات السياسية والجغرافية التي شهدتها المنطقة. غير أن البحث في هذا الكتاب لا يهدف إلى تتبع جميع المراحل الجغرافية والسياسية التي مر بها العراق، وإنما ينصب الاهتمام على الحقبة السابقة للإسلام، ثم مرحلة الفتوحات الإسلامية وما ترتب عليها من تحولات حضارية وجغرافية؛ لما لهاتين المرحلتين من صلة مباشرة بموضوع الدراسة.

لقد تناول الجغرافيون العرب مفهوم العراق باعتباره إقليمًا ذا دلالة جغرافية وحضارية محددة، ومن ذلك ما ذكره المقدسي في كتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، إذ أشار إلى أن اسم العراق أُطلق على إقليم بابل، وأن اسم بابل - الذي كان معروفًا في العصور القديمة - قد خفت استعماله مع مرور الزمن، حتى أصبح الناس لا يعرفون ذلك الإقليم إلا باسم العراق، وهذا يعكس

انتقال التسمية من إطارها الحضاري القديم إلى إطار جغرافي جديد أصبح أكثر حضورًا في المصادر الإسلامية[١] .

وقد تبنّى المستشرق غي لسترنج (Guy Le Strange) ما ذهب إليه المقدسي في تحديد مدلول اسم العراق، إذ يرى أن العرب أطلقوا على القسم الشمالي من المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات اسم الجزيرة، في حين أطلقوا على القسم الجنوبي اسم العراق، وهو الاسم الذي شمل إقليم بابل بأكمله؛ إذ إن اسم بابل الذي كان معروفًا في العصور القديمة تراجع استعماله مع مرور الزمن، حتى أصبح هذا الإقليم يُعرف في المصادر الإسلامية باسم العراق، ويكشف هذا التحول في التسمية عن انتقال المنطقة من إطارها الحضاري القديم المرتبط ببابل إلى إطار جغرافي جديد أصبح أكثر رسوخًا في الوعي العربي والإسلامي، ليشمل السهل الرسوبي الممتد بين دجلة والفرات، والذي ظل يمثل مركزًا حضاريًا وسياسيًا مهمًا عبر العصور [٢] .

وفي الواقع، فإن هذا التقسيم الجغرافي لم يكن مستحدثًا من قبل العرب، وإنما كان معروفًا في العصور القديمة ، وإن اختلفت التسميات باختلاف المراحل التاريخية؛ فقد عُرف القسم الشمالي من بلاد الرافدين باسم **بلاد آشور**، في حين

---

(١) أحسن التقاسيم : ص ١١٦ .

(٢) بلدان الخلافة الشرقية : ص ٤١ .

عُرف القسم الجنوبي باسم بلاد سومر، ثم تطورت تسمية القسم الجنوبي لاحقًا، فأصبح يُعرف باسم إقليم بابل نسبة إلى مدينة بابل التي غدت من أعظم مدنه، واتخذتها عدد من الدول التي قامت في هذا الإقليم مركزًا سياسيًا وعاصمة لحكمها، حتى ارتبط اسم المنطقة بها في كثير من المصادر التاريخية[1] .

وقد ذهب جمهور الجغرافيين العرب إلى أن النطاق الجغرافي للعراق أبان الفتح الإسلامي وبعده ، يدور حول هذا النطاق الجغرافي :

من الغرب الجزيرة العربية والبادية ، ومن الشرق بلاد الجبل وحلوان[2]، ومن الشمال حلوان إلى الجزيرة ، ومن الجنوب البادية وبحر فارس ، وبذلك تكون أبعاد هذه الحدود من الشرق : حلوان إلى العذيب في الغرب ، ومن تكريت في الشمال إلى عبادان في الجنوب[3] .

وكان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يرغب في السواد فقط ، ويود أن يكون بينه وبين الفرس جبل من نار ، فقد جاء في بعض الأخبار : أن عمر رضى الله

---

(١) ثابت الراوي : العراق في العصر الأموي : ص ٢٠ .

(٢) قال ابن عبد الحق (مراصد الاطلاع : ١/٤١٨) : ((هي آخر السواد مما يلي الجبال)) ، وتقع حالياً بالقرب من شهرزور وخانقين .

(٣) ينظر : ابن خرداذبة ، المسالك والممالك : ص ١٤ ؛ ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٤/٩٤ .

عنه قال لمّا أخذت الأحواز وما يليها: « وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه، ولا يصلون إلينا »(١)، ومن الملاحظ أن مسألة تحديد الحدود الجغرافية للعراق في العصر العباسي لم تحظَ باهتمام كبير في المصادر التاريخية؛ وذلك بسبب اندماج العراق وبلاد فارس ضمن إطار سياسي وحضاري واحد في ظل الدولة العباسية، الأمر الذي جعل الفصل بين الإقليمين أقل وضوحًا من الناحية الإدارية والسياسية. وقد استمر هذا التداخل، أو بقيت آثاره واضحة، حتى بعد سقوط بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، إذ ظلت الروابط السياسية والثقافية والجغرافية بين العراق وفارس حاضرة في مراحل لاحقة من التاريخ (٢).

ويبدو أن الاصطخري كان ينظر إلى العراق بوصفه إقليمًا جغرافيًا واسعًا يمتد من تكريت شمالًا إلى عبادان جنوبًا، كما أشار إلى امتداده عرضًا من جهة الكوفة والقادسية إلى حلوان، ويكشف هذا التحديد عن أن الاصطخري كان يستخدم مصطلح العراق بمعناه الجغرافي الواسع، لا بمعناه الإداري الضيق، وهو ما يشير إلى وجود تصور جغرافي قريب من التقسيم الذي عُرف لاحقًا

(١) الطبري (التاريخ : ٧٩/٤) .

(٢) ثابت الراوي (مصدر سابق : ٢١) .

بمصطلحي عراق العرب وعراق العجم، أو على الأقل أنه يمثل خلفية جغرافية مهدت لظهور هذا التقسيم في كتب الجغرافيا الإسلامية.

أما مصطلحَا : (عراق العرب) و(عراق العجم)، فلم يكونا معروفين في المرحلة المبكرة التي أعقبت فتح العراق، وإنما ظهرا في فترة لاحقة مع تطور التقسيمات الجغرافية والإدارية في المصادر الإسلامية، وقد أشار ياقوت الحموي إلى ذلك بقوله : « وهو اصطلاح محدث لا يُعرف في القديم » ، مما يدل على أن هذا التقسيم لم يكن قائمًا في بدايات العصر الإسلامي، بل نشأ نتيجة التحولات السياسية والجغرافية واتساع معرفة المسلمين بالأقاليم وتمايزها (١) ، ويُرجَّح في الموضع نفسه أن ظهور هذا المصطلح يعود إلى العصر السلجوقي، حين بدأت التقسيمات الجغرافية في المصادر الإسلامية تأخذ طابعًا أكثر تحديدًا نتيجة التحولات السياسية والإدارية التي شهدتها المنطقة. وقد استُخدم مصطلح (عراق العجم) للدلالة على مناطق وسط إيران، ولا سيما الإقليم المعروف لاحقًا بهذا الاسم، مع الإشارة إلى أن إطلاق وصف (العجم) على تلك المناطق لم يكن شائعًا في المصادر المبكرة، وإنما ظهر وتبلور في مراحل متأخرة مع تطور المصطلحات الجغرافية في الكتابات الإسلامية.

---

(١) معجم البلدان : ٢/٩٩ .

أما من حيث التمييز بين الإقليمين، فقد ذكر الاصطخري أن عراق العرب كان يطلق على المنطقة التي تشمل الكوفة والبصرة وبغداد والفرات الأوسط وأجزاء من جنوب العراق، وسُمّي بهذا الاسم لارتباطه بالقبائل العربية التي استقرت فيه بعد الفتح الإسلامي، ولكونه مركزًا للخلافة الإسلامية وموطنًا لكثير من القبائل العربية، كما عُرف هذا الإقليم باسم السواد؛ لما امتاز به من خصوبة أراضيه وكثرة زراعته ووفرة مياهه، حتى أصبح يمثل القلب الزراعي والحضاري للعراق.

أما عراق العجم فكان يُراد به الإقليم الواقع في غربي إيران الحالية، ولا سيما مناطق الجبال وما جاورها من همذان وأصبهان والري وقزوين .وقد أُطلق عليه هذا الاسم لما كان بينه وبين عراق العرب من تشابه في ازدهاره العمراني وخصوبة بعض مناطقه وكثرة مدنه، إلا أن الغالب على سكانه كانوا من العجم (الفرس)، في مقابل غلبة العنصر العربي في عراق العرب؛ ومن هنا جاء هذا التمييز في المصطلحات الجغرافية الإسلامية.

وقد كانت حدود العراق في صدر الإسلام تمتد من الجهة الشمالية ، مع نهر العَظِيم ، ابتداء من دخوله جبل بارما (حمرين) إلى مصب نهر دجلة ، وذكر أبو عبيد : « أن حد السواد الذي وقعت عليه المساحة من لدن تخوم الموصل ، ماراً

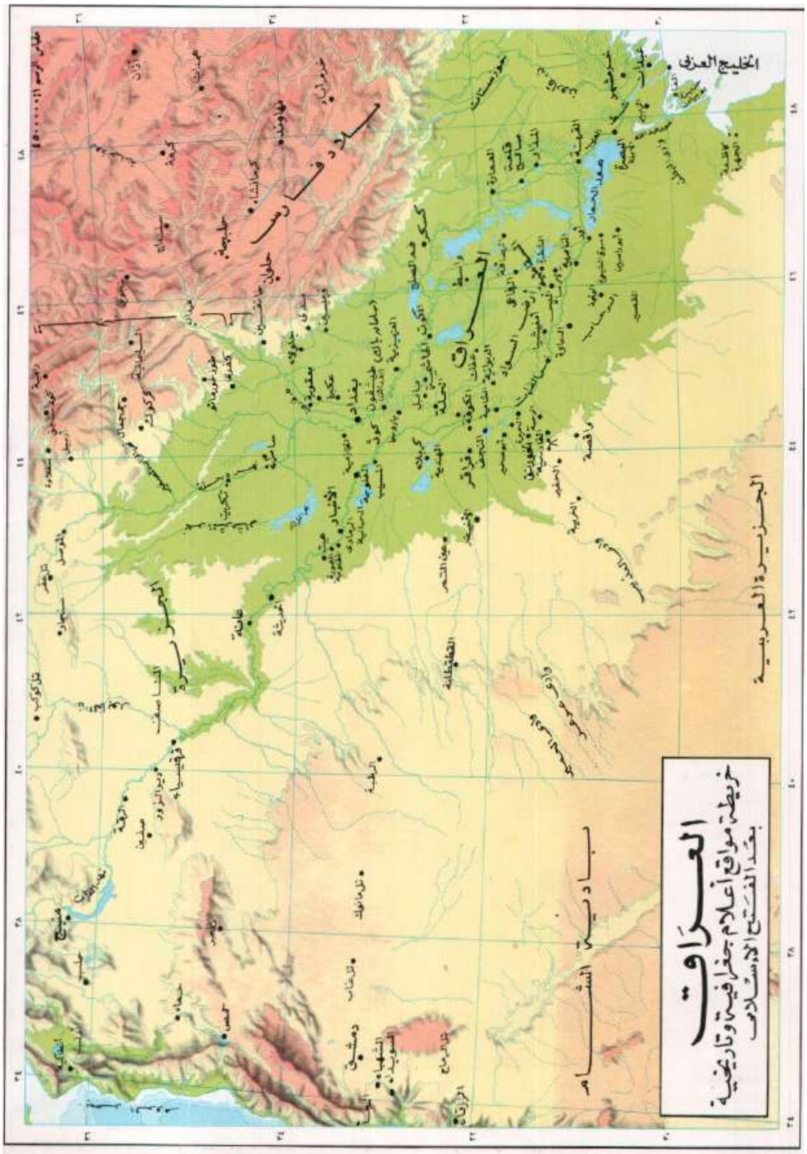
مع الماء إلى ساحل البحر ببلاد عبادان» [١] ، ويبدو أن هيت كانت تابعة إدارياً للعراق حتى بداية الدولة الأموية ، فقد ورد أن بها لأهل الكوفة عمالاً في عهد عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهما ، ولما ولي معاوية بن أبي سفيان ، الحكم فصل هيت عن الأنبار وجعلها تابعة للجزيرة الفراتية[٢] .

---

(١) الأموال : ص ١٠٣ .

(٢) محمد محاسنة (الفتح الإسلامي للعراق : ص ٢٠) .

خريطة العراق أبان الفتح الإسلامي[1]



(١) حسين مؤنس (أطلس تاريخ العالم الإسلامي : ١٦٣) .

المبحث الثالث
العراق قبيل الفتح

كانت الدولة الساسانية، التي بسطت نفوذها على العراق قبيل الفتح الإسلامي - تضم ضمن نطاقها الجغرافي إقليمين متميزين من حيث طبيعة السكان، والخصائص الاجتماعية، والأنماط الحضارية.

تمثل القسم الأول في العراق، الذي امتد من السهل الرسوبي حتى سفوح السلاسل الجبلية الإيرانية، وكان يغلب عليه الطابع الزراعي منذ العصور القديمة، مستفيدًا من خصوبة أراضيه وشبكة الأنهار التي تخترقه. وقد اتسم هذا الإقليم بطابع ثقافي سامي متأثر بحضارات بلاد الرافدين المتعاقبة، وكانت عاصمته طيسفون، التي عُرفت بعد الفتح الإسلامي باسم المدائن، وكانت من أهم مراكز الحكم الساساني.

أما القسم الثاني فتمثل في إيران الداخلية أو الهضبة الإيرانية، وهي المنطقة الممتدة من السلاسل الجبلية الإيرانية باتجاه هضاب آسيا الوسطى، وقد اتخذت من إصطخر مركزًا سياسيًا مهمًا لها، حيث ارتبطت بتاريخ فارس القديم ومكانتها الحضارية قبل الإسلام(١).

---

(١) كريستس (إيران في عهد الساسانيين : ٢).

وسبب تسميتها بالدولة بالساسانية ، ترجع إلى الكاهن الزرادشتي (ساسان) الذي كان جداً لأول ملوك هذه الأسرة ، وهو أردشير الأول ، الذي نجح في سنة **٢١٢**م في قتل ملك اصطخر وتولى الحكم مكانه ، ثم استولى بالتدريج على معظم مدن بلاد فارس ، ثم توجه الى العاصمة طيسفون (المدائن) في العراق وسيطر عليها ، وتوج نفسه ملكاً شرعياً على البلاد عام **٢٢٦** ميلادية ، وعد هذا العام بداية العهد الساساني في العراق ، واستمر حكم الساسانيين في العراق أكثر من أربعة قرون ، انتهى بزحف الجيوش العربية الاسلامية الى العراق وايران ، وانتصارها عام **١٥**هـ/**٦٣٧**م في موقعة القادسية الشهيرة .

أما من الناحية السكانية ، فقد أطلق العرب كلمة النبط على سكان العراق الأصليين قبل الفتح وبعده ، يقول يحيى بن آدم : « وأما سوادنا هذا، فإنا سمعنا أنه كان في أيدي النبط، فظهر عليهم أهل فارس، فكانوا يؤدون إليهم الخراج، فلما ظهر المسلمون على أهل فارس، تركوا السواد ومن يقاتلهم من النبط والدهاقين على حالهم، ووضعوا الجزية على رؤوس الرجال، ومسحوا عليهم ما كان في أيديهم من الأرض، ووضعوا عليها الخراج »[1]، واضطرب المؤرخون

---

(١) الخراج : ص ٢٢ .

العرب في تحديد جنس (النبط) ، فبينما ذهب الكلبي إلى أن أصلهم يعود إلى حام ابن نوح ثم بقايا ثمود ، ذهب غيره إلى أن النبط هو الكلدانيون أو السريان [1].

وبغض النظر عن اختلاف التسميات التي أطلقها المؤرخون والنسّابون القدماء على هذه الجماعات السكانية، فإنهم كانوا يمثلون، على الأرجح، امتدادًا للسكان الأصليين لبلاد الرافدين، الذين تعاقبت أجيالهم منذ عصور الحضارات القديمة، كالسومريين والبابليين والآشوريين وغيرهم ممن أسهموا في بناء الحضارة العراقية وتطوير نظمها العمرانية والزراعية.

ويبدو أن النبط الذين أشارت إليهم المصادر التاريخية كانوا من الجماعات ذات الخبرة الواسعة في مجال الزراعة، إذ حافظوا على المعارف الزراعية المتوارثة عن أسلافهم، ولا سيما ما يتعلق باستصلاح الأراضي، وشق القنوات المائية، وتنظيم وسائل الري التي كانت من أهم مقومات ازدهار الحياة الاقتصادية في بلاد الرافدين، وقد أشار الخطيب البغدادي إلى هذه المكانة في معرض حديثه عنهم بقوله :« إن النبط هم الذين استنبطوا الأرض ، وعمروا السواد ، وحفروا

---

(١) المسعودي ، التنبيه والإشراف : ٣٣ .

الأنهار العظام فيه »[1]، وربط ابن منظور تسميتهم بالمهنة الفلاحة التي كانوا يتقنونها ، فقال : « والنبط إنما سموا نبطاً لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين »[2].

وكان النبط يمثلون الغالبية العظمى من فلاحي أرض السواد في العراق، وكان انتشارهم يتركز في القرى والأرياف، حيث ارتبط وجودهم بالنشاط الزراعي واستصلاح الأراضي. وقد حاولت بعض المصادر الإسلامية تحديد مدلول هذا الوصف، فذكرت أن (النبطي) هو كل من لم يكن راعيًا ولا جنديًا عند العرب من سكان الأرضين، أي من ارتبطوا بالإقامة في القرى وممارسة أعمال الزراعة. ومن هنا أصبحت نسبة (النبطي) في الاستعمال التاريخي تشير غالبًا إلى سكان القرى والأرياف، في مقابل سكان المدن أو المنتمين إلى القبائل العربية.

ويرجح أن هؤلاء النبط كانوا يمثلون امتدادًا للسكان المحليين في بلاد الرافدين، الذين حافظوا على جانب مهم من الخبرات الحضارية المتوارثة عبر العصور، ولا سيما في المجال الزراعي، الذي عُرفت به المنطقة منذ قيام الحضارات السومرية والبابلية والآشورية، فقد أسهمت خبرتهم الطويلة في الزراعة وشق قنوات الري وإدارة موارد المياه في استمرار الحياة الاقتصادية

---

(١) تاريخ بغداد : ١/ ٧٩ .

(٢) لسان العرب : ٧/ ٤١١ .

للعراق بعد الفتح الإسلامي، ولعل من مظاهر السياسة الحكيمة للخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه أنه أبقى أرض السواد في أيدي أهلها الذين كانوا يقومون على زراعتها قبل الفتح، إدراكًا منه لأهمية خبرتهم ودورهم في الحفاظ على الإنتاج الزراعي للإقليم.

وقد ورد في بعض الروايات أنه ﵁ قال: «وأخاف إن قسمته أن تفاسدوا بينكم في المياه، قال: فأقرّ أهل السّواد في أرضيهم، وضرب على رءوسهم الجزية، وعلى أرضيهم الطّسق[1]، ولم يقسم بينهم، قال أبو عبيدٍ: يعني: الخراج»[2]، وفي هذا النص إشارة إلى إدراك سيدنا عمر بن الخطاب ﵁ لخبرة النبط في إدارة تلك الأراضي، وخص بالذكر منها المياه؛ لأن العرب لم تكن عندهم الخبرة الكافية لإدارة القنوات المائية، فهم قد جاءوا من بيئة صحراوية، لا أنهار فيها ولا قنوات، وهناك أسباب أخرى ذكرت في بعض الروايات في سبب عدم تقسيم أرض السواد، لكن يبدو لنا أن هذا السبب كان جوهرياً في اتخاذ مثل ذلك القرار، الذي أثبتت الأيام فيما بعد صحته.

من جهو أخرى لم تكن علاقة عرب الجزيرة العربية بالعراق وليدة الفتح الإسلامي، بل كانت قائمة قبل ذلك بقرون، بحكم القرب الجغرافي والتداخل

---

(١) الطَّسْقُ: الخَرَاجُ، وهو ما يُؤخذ من الأرض من غلة أو مال. (لسان العرب: ١٠/٢٢٥)

(٢) القاسم بن سلام، الأموال: ٧١.

الاقتصادي بين المنطقتين، فقد عرف العرب طريقهم إلى العراق من خلال التجارة، فكانوا يفدون إلى مدنه وأسواقه، كما استقر بعضهم في أطرافه، ولا سيما في المناطق القريبة من مراكز العمران، مثل الحيرة وعين التمر والأنبار، التي أصبحت مواطن مهمة للوجود العربي قبل الإسلام. وفي المقابل، عاشت جماعات عربية أخرى حياة التنقل في البوادي المتاخمة للعراق، مثل بادية الجنوب التي عُرفت لاحقًا ببادية البصرة، وبادية الغرب التي ارتبطت لاحقًا ببادية الكوفة.

وقد ساعدت الظروف الجغرافية لهذه المناطق على استمرار الاستقرار البشري فيها؛ إذ إن قربها من نهر الفرات وفّر مصادر المياه، وجعل الحصول على المياه الجوفية فيها أكثر سهولة مقارنة بالمناطق الداخلية من الجزيرة العربية، الأمر الذي أسهم في جعلها مناطق اتصال وحركة بين سكان البادية والحاضرة،ومن ثم فقد شكل الوجود العربي قبل الإسلام في أطراف العراق قاعدة بشرية واجتماعية مهمة أسهمت لاحقًا في سرعة اندماج العرب في الحياة السياسية والعسكرية للعراق بعد الفتح الإسلامي(١).

ويتضح من بعض الأخبار الواردة في كتب التاريخ : أن البادية التي تحد العراق من الجهة الشمالية الغربية ، ما بين الكوفة والأنبار كانت جيدة المراعي ،

---

(١) محمد محاسنة ، الفتح الإسلامي في العراق :ص ٣٣.

ولهذا فقد حماها النعمان بن منذر لأبله ، كما حماها الوليد بن عقبة حين ولايته للكوفة سنة **٢٥**هـ لاخواله بني تغلب[١] .

وفي أيام الكسرى : قباذ بن فيروز (٤٩٨-٥٣١م) انشغلت الدولة الساسانية بحروب واضطرابات داخلية ؛ الأمر الذي استغلته القبائل العربية ، خاصة بكر ابن وائل لتقوم بالإغارة ، وبشكل ملحوظ على ريف العراق ، حتى إن ابن الكلبي يذكر : أن عرباً جاءوا من اليمن إلى الحيرة ، في هذه الحقبة واستولوا على أرض بجانب الحيرة وأحيوها[٢].

واستمرت قبيلة بكر بن وائل تعزز وجودها في تخوم الدولة الساسانية ، وبرز هذا الوجود أكثر في نهاية القرن السادس الميلادي ، وبداية القرن السابع حين هزمت الدولة الساسانية في معركة ذي قار ، وانتصرت القبائل العربية عليها ، فكانت هذه المعركة نقطة انطلاق لهذه القبائل في الزحف نحو السهل الرسوبي[٣]، ومهدت فيما بعد لفتح العراق أبان الخلافة الراشدة[٤] .

---

(١) الأصفهاني (الأغاني : ١٣٧/٥) .

(٢) الطبري (التاريخ : ٦٥/٢) ؛ محاسنة : مصدر سابق .

(٣) العراق يُعدّ من أغنى الدول بتكويناته الرسوبية، لأن أغلب أراضيه تقع ضمن ما يُعرف بـ المنطقة الرسوبية الرافدية ، الممتدة بين نهري **دجلة والفرات**.

(٤) اليعقوبي (التاريخ : ٢١٢/١) .

وفي مطلع القرن السابع الميلادي، شهد العراق دخول جماعات من قبيلة تميم إلى ريفه، وذلك في عهد إمارة إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة (٦١٣-٦١٨م)، وقد ارتبط هذا الانتقال بظروف اقتصادية ومناخية صعبة تعرضت لها بادية تميم، إذ توالت عليهم سنوات من الجدب والقحط دفعتهم إلى البحث عن موارد أكثر استقرارًا في مناطق الريف الزراعي.

ويذكر البلاذري أن القحط استمر بهم سبع سنين حتى اشتد عليهم الأمر، فطلبوا الإذن بدخول الريف، فأذن لهم الفرس - حكام العراق آنذاك - بشرط ألا يتعرضوا للمزارعين أو يضروا بأهل الزراعة، ويكشف هذا الخبر عن طبيعة العلاقة بين سكان البادية وسكان الريف في العراق قبيل الفتح الإسلامي؛ فقد كانت المناطق الزراعية تمثل موردًا اقتصاديًا مهمًا تحرص السلطات على حمايته، كما يدل على أن حركة القبائل العربية نحو العراق لم تكن مرتبطة بالفتح وحده، بل سبقتها عوامل طبيعية واقتصادية، من أبرزها الجفاف والحاجة إلى موارد العيش، كما يبرز هذا الحدث أهمية الحيرة بوصفها مركزًا سياسيًا واقتصاديًا على تخوم العراق، إذ كانت تمثل منطقة تواصل بين البادية العربية والمجال الحضري الفارسي، ومجالًا استقطب القبائل العربية الباحثة عن الاستقرار والعمل في بيئة أكثر خصوبة من بيئات الجزيرة العربية[١] .

(١) البلاذري (أنساب الأشراف : ٢/٨٥٣) .

ويؤكد هذا الجانب ما ورد في الحوار الذي جمع الصحابي المغيرة بن شعبة رضي الله عنه مع رستم الفارسي قبل معركة القادسية، حيث استحضر رستم صورة العرب وأحوالهم قبل الفتح، مشيرًا إلى ما كان يُنظر إليهم به من قلة الموارد وبساطة العيش مقارنة بحضارة الفرس، فقال: « كنتم أهل قشف ومعيشة سيئة، لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم، وأصابتكم السنة استغثتم بناحيه أرضنا ، فنأمر لكم بالشيء من التمر والشعير ثم نردكم..»[(١)].

ومما سبق يتضح أن العراق قبيل الفتح الإسلامي كان يعيش أوضاعًا سياسية واجتماعية مضطربة، جعلته مهيأً لاستقبال قوة سياسية وعسكرية جديدة، ولا سيما في ظل ما شهدته البلاد من هيمنة الإدارة الساسانية وتشددها في جباية الضرائب، وما ترتب على ذلك من أعباء أثقلت كاهل السكان المحليين، ولا سيما الفلاحين من أهل السواد (النبط) الذين كانوا يمثلون العماد الأساسي للاقتصاد الزراعي، كما أسهمت الصراعات الداخلية التي عانت منها الدولة الساسانية في إضعاف قدرتها على المحافظة على تماسكها أمام القوى الصاعدة.

وفي هذا السياق التاريخي جاءت حركة الفتح الإسلامي التي قادها الصحابة رضي الله عنهم، والتي لم تكن مجرد تحول عسكري أو انتقال للسلطة السياسية،

---

(١) الطبري (التاريخ : ٥٢٣/٣) .

بل حملت في التصور الإسلامي رسالة دينية وحضارية تمثلت في دعوة الناس إلى عبادة الله وحده، ورفع ما رأوه من صور الظلم والاستبداد البشري. وقد شكل دخول المسلمين إلى العراق نقطة تحول كبرى في تاريخه، إذ انتقل من كونه إقليمًا تابعًا للدولة الساسانية إلى أحد أهم مراكز الحضارة الإسلامية، ولم يقتصر أثر هذا التحول على العراق وحده، بل امتد أثره إلى مسار التاريخ الإنساني في المشرق والعالم بأسره.

المبحث الرابع
الفتح الإسلامي العراق

مراحل الفتح :

بدأت المرحلة الأولى من الفتح الإسلامي للعراق في خلافة **أبي بكر الصديق رضي الله عنه**، عندما كتب **المثنى بن حارثة الشيباني** إلى الخليفة يطلب الإذن بالتوجه إلى العراق وفتحها، بعد أن تبيّن له أن الدولة الساسانية كانت تقدم الدعم للمرتدين في البحرين، من خلال إمدادهم بالسلاح والرجال، في محاولة لاحتواء المد الإسلامي وإضعاف الدولة الإسلامية الناشئة. وقد شكّل هذا التدخل الفارسي عاملاً مهمًا في انتقال المواجهة من نطاقها الداخلي إلى مواجهة مباشرة مع النفوذ الساساني على حدود العراق(١).

واستجاب أبو بكر الصديق رضي الله عنه لهذا الطلب، بعد أن استقرت أوضاع الجزيرة العربية بانتهاء حروب الردة، فأصبح من الممكن توجيه الجهود العسكرية نحو الجبهة العراقية. ولم يكن الهدف من هذه الحملات مجرد التوسع العسكري، بل جاء أيضًا لتأمين الحدود الشمالية الشرقية للدولة الإسلامية، وقطع الطريق أمام أي محاولات ساسانية لإحياء حركة الردة أو تهديد أمن الدولة من خارج الجزيرة العربية.

---

(١) البلاذي (فتوح البلدان : ١٥٠) .

وفي المقابل، لم تُقدِّر الدولة الساسانية في بادئ الأمر حجم التحول الذي شهدته الدولة الإسلامية بعد القضاء على الردة، فاستخفَّت بطلائع القوات الإسلامية، وعدّت تلك الحملات امتدادًا للغارات العربية التقليدية التي اعتادت التعامل معها عبر العصور؛ ولذلك أوكلت مهمة التصدي للمسلمين إلى الحاميات العسكرية المحلية، وإلى القبائل العربية الموالية لها على أطراف العراق، دون أن تعبئ جيوشها النظامية الرئيسة، معتمدةً على السياسة نفسها التي كانت تنتهجها في مواجهة غارات القبائل العربية قبل الإسلام. غير أن تطور الأحداث أثبت أن هذه التقديرات لم تكن دقيقة، إذ سرعان ما تحولت تلك الحملات إلى مشروع فتحٍ منظم انتهى بانهيار النفوذ الساساني في العراق، ثم في بلاد فارس بأسرها (١).

أما المرحلة الثانية من الفتح الإسلامي للعراق، فقد بدأت مع انتقال العمليات العسكرية إلى المناطق الواقعة وراء نهر الفرات، وهي المرحلة التي أدركت فيها الدولة الساسانية أن ما تواجهه لم يعد مجرد غارات حدودية محدودة، كما اعتادت من القبائل العربية في العصور السابقة، وإنما مشروع عسكري وسياسي منظم يستهدف إنهاء نفوذها في العراق. ومنذ تلك اللحظة تبدل

---

(١) محمد عادل ، مصدر سابق .

الموقف الساساني تبدلًا جذريًا، فأخذت القيادة الفارسية تستنفر جميع طاقاتها للدفاع عن الدولة ومراكز نفوذها.

ولتحقيق ذلك، أقدمت الدولة الساسانية على تعبئة مواردها العسكرية والبشرية تعبئةً شاملة، فاستدعت القوات من مختلف الأقاليم، وأعلنت النفير العام، وعهدت بقيادة الجيش إلى كبار قادتها، استعدادًا لخوض مواجهة فاصلة مع المسلمين، انتهت بمعركة القادسية التي تعد من أبرز المعارك الحاسمة في تاريخ الفتوح الإسلامية. كما أعادت تنظيم منظومتها الدفاعية في العراق، فعززت الحاميات العسكرية، ونشرت السرايا في أنحاء السواد، وأقامت خطوطًا دفاعية لحماية المدن والمراكز الإدارية وطرق الإمداد، أملاً في إيقاف تقدم الجيوش الإسلامية واستعادة زمام المبادرة.

وإلى جانب الاستعداد العسكري، انتهجت الدولة الساسانية سياسةً سياسيةً وإعلاميةً هدفت إلى إضعاف الموقف الإسلامي من الداخل؛ فسعت إلى تحريض السكان المحليين على المسلمين، وأثارت مخاوفهم من النظام الجديد، كما دفعت كثيرًا من الجماعات إلى نقض العهود والمواثيق التي كانت قد أبرمتها مع قادة الفتح، رغبةً في حرمان المسلمين من أي قاعدة اجتماعية يمكن أن يستندوا إليها داخل العراق. إلا أن هذه المحاولات، على الرغم من اتساعها، لم تنجح في تغيير مسار الأحداث، إذ انتهت المواجهة بانتصار المسلمين في القادسية، وهو الانتصار الذي مثّل بداية النهاية للوجود الساساني في العراق، ومهّد لانهيار

الإمبراطورية الساسانية بعد ذلك بسنوات قليلة، وانتقال العراق إلى مرحلة جديدة من تاريخه السياسي والحضاري في ظل الدولة الإسلامية.

ويبدو أن المسلمين من ناحيتهم ، لم يكونوا أقل إدراكاً لأهمية هذا الصراع وأثره في تحديد مصير الإسلام ، ويبدو هذا جلياً من خطبة المثنى بن حارث الشيباني بين جنده ، ومما جاء في خطبة المثنى : « يا أيها النَّاسُ، لا يَعْظُمَنَّ عَلَيْكُمْ هَذَا الْوَجْهُ، فَإِنَّا قَدْ تَبَحْبَحْنَا رِيفَ فَارِسَ، وَغَلَبْنَاهُمْ عَلَى خَيْرِ شِقَّي السَّوَادِ وَشَاطَرْنَاهُمْ وَنِلْنَا مِنْهُمْ، وَاجْتَرَأَ مَنْ قِبَلِنَا عَلَيْهِمْ، وَلَهَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا بَعْدَهَا » أما أمير المؤمنين فقد قام بعده فقال: إِنَّ الْحِجَازَ لَيْسَ لَكُمْ بِدَارٍ إِلا عَلَى النُّجْعَةِ، وَلا يَقْوَى عَلَيْهِ أَهْلُهُ إِلا بِذَلِكَ، أَيْنَ الطُّرَّاءُ الْمُهَاجِرُونَ عَنْ مَوْعُودِ اللَّهِ! سِيرُوا فِي الأَرْضِ الَّتِي وَعَدَكُمُ اللَّهَ فِي الْكِتَابِ أَنْ يُورِثَكُمُوهَا، فَإِنَّهُ قَالَ: ﴿لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ ، وَاللَّهُ مُظْهِرٌ دِينَهُ، وَمُعِزٌّ نَاصِرَهُ، وَمُوَلِّي أَهْلَهُ مَوَارِيثَ الأُمَمِ أَيْنَ عِبَادُ اللَّهِ الصَّالِحُونَ! »(١) .

دخل المسلمون والدولة الساسانية في سلسلة من المواجهات العسكرية المتتابعة بدأت في محرم سنة ١٢هـ، واستمرت نحو خمس سنوات، وشهدت خلالها جبهة العراق عددًا من المعارك التي تفاوتت في حجمها وأهميتها، حتى انتهت بحسم الصراع لصالح المسلمين. وقد تخللت هذه المرحلة معركتان

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣/ ٤٤٤) .

تُعدان من أبرز المعارك الفاصلة في تاريخ الإسلام؛ الأولى معركة القادسية التي وقعت في شعبان سنة **١٥**هـ، وأسفرت عن انهيار النفوذ الساساني في العراق وسقوط أهم مراكزه السياسية والعسكرية، والثانية معركة نهاوند سنة **٢١**هـ، التي مثّلت الضربة الحاسمة للدولة الساسانية، إذ قضت على قدرتها العسكرية والتنظيمية، ومهّدت لانهيارها النهائي، كما فتحت الطريق أمام المسلمين للتوسع في أقاليم فارس وما وراءها، لتبدأ مرحلة جديدة من الفتوحات الإسلامية في المشرق.

وتكتسب هذه المعارك أهمية خاصة، لا لكونها محطات فاصلة في تاريخ الصراع الإسلامي الساساني فحسب، بل لما شهدته من مشاركة عدد كبير من أصحاب رسول الله ﷺ، الذين كان لهم دور بارز في قيادة الجيوش، وتخطيط العمليات العسكرية، وتثبيت دعائم الفتح الإسلامي في العراق وفارس. ومن ثمّ، فإن طبيعة هذا البحث تقتضي تقديم عرض موجز لأبرز تلك المعارك، يوضح تسلسلها الزمني، وأهم أحداثها، ونتائجها، مع الإشارة إلى أدوار الصحابة الذين شاركوا فيها، وذلك على النحو الآتي:

١. **معركة ذات السلاسل** : وقعت في شعبان سنة **١٢**هـ بين المسلمين بقيادة خالد بن الوليد - رضي الله عنه - والفرس بقيادة هرمز، حيث جرت المعركة في منطقة كاظمة - شمال دولة الكويت حاليًا - وانتهت بانتصار

المسلمين ، وسميت المعركة بذات السلاسل ؛ لأن هرمز قائد الفرس طلب من جنود الفرس أنّ يقيدوا ويربطوا أنفسهم بالسلاسل، حتى يستميتوا في القتال ولا يفروا من المعركة، وقد حاول هرمز أن يغدر بخالد بن الوليد ، لكن الأخير تمكن منه وقتله ، فانفرط عقد الفرس، وولوا الأدبار، وقتل منهم الكثير ، وقتل المقيدون بالسلاسل عن بكرة أبيهم، فكان هذا سبب تسمية المعركة بذات السلاسل[1].

٢. **معركة الأُبُلة :** حدثت بعد معركة ذات السلاسل ، ومهدت الأخيرة الطريقة إلى الأُبلة ، وقد أخذ خالد بن الوليد بوصية الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، الذي قال له : « سر إلى العراق حتى تدخلها ، وابدأ (بفرج الهند) أي ثغرها وهي الأبلة » [2]؛ لأن هرمز كان والياً عليها ، فلما قتل في معركة ذات السلاسل ، دخل الرعب في قلوب حاميتها فتحصنوا فيها ، وكان سويد بن قطبة قد سبق خالداً إليها ، وبحيلة ذكية من المسلمين ، تم استدراج الحامية خارج حصن الأُبلة ، فلما رأى الفرس خالد بن الوليد على مقدمة الجيش ، قذف الله تعالى في قلوبهم الرعب ، واستسلمت حامية المدينة بدون قتال ،

---

(١) الطبري (التاريخ : ٤/١٦٥) ؛ ابن الأثير (الكامل في التاريخ : ٢/٢٣٥) .

(٢) الطبري (التاريخ : ٣/٣٤٣) ، الأبلة: على شط العرب في زاوية الخليج الذي يدخل في مدينة البصرة، وهي أقدم من البصرة.

فدخلها المسلمون الأُبلة بقيادة: معقل بن مقرن المزني ، وتوجه خالد بن الوليد إلى المذار[1] ، بعد أن سمع بتجمع الفرس فيها[2].

٣. **معركة المُذار :** وقعت في صفر سنة **١٢**هـ ، إذ أن كسرى كان قد جهز – فور تسلمه كتاب خالد من عامله هرمز – جيشًا بقيادة قارن بن قريانس، وأرسله مددًا لهرمز، غير أنه لم يدركه ، وعندما وصل إلى المذار ، بلغته أنباء الهزيمة، ومصرع هرمز، ووصلت إليه فلول ذات السلاسل ، وقد علم المثنى بن الحارث الشيباني – الذي كان يستطلع المنطقة – بتجمع الفرس بالمُذار فكتب إلى خالد بن الوليد بذلك ، فسار خالد بن الوليد من الأبلة ، والتقى بالفرس بالمُذار ، والتحم الجيشان في معركة حامية الوطيس ، كانت أشد قتالاً مما كان في ذات السلاسل ، انتهت بهزيمة الفرس وانتصار المسلمين[3].

---

(١) المذار: في ميسان بين واسط والبصرة، وهي قصبة ميسان، بينها وبين البصرة ومقدار أربعة أيام . (معجم البلدان : ٥/٨٨) . قلت: وتقع حالياً جنوب مدينة (قلعة صالح) بمحافظة ميسان .

(٢) ينظر : الطبري (التاريخ : ٣/٣٧٢) ؛ ابن الأثير (الكامل في التاريخ : ٢/٢٣٦) .

(٣) ابن الأثير (الكامل : ٢/٢٣٦) ؛ ابن كثير (البداية والنهاية : ٦/٣٤٤) .

٤. **معركة الوَلَجَة**[١] :وقعت معركة الولجة في صفر سنة **١٢**هـ، وجاءت في سياق المحاولات الساسانية لوقف التقدم الإسلامي بعد الهزيمة التي مُنيت بها قواتها في معركة المذار .فقد بادرت القيادة الفارسية إلى حشد قوة كبيرة في منطقة الولجة، أملاً في استعادة زمام المبادرة وإيقاف تقدم المسلمين نحو داخل العراق، وما إن بلغ خالد بن الوليد رضي الله عنه خبر هذا الحشد حتى تحرك بقواته على وجه السرعة، مستفيدًا من عنصر المفاجأة، إذ لم تكن القوات الفارسية تتوقع وصوله بهذه السرعة، كما عهد إلى سويد بن مقرن المزني رضي الله عنه بحماية مؤخرة الجيش وتأمين خطوط الإمداد تحسبًا لأي التفاف معادٍ.

وعند وصول الجيش الإسلامي إلى ميدان القتال، أحسن خالد بن الوليد استثمار طبيعة الأرض، ووضع خطة عسكرية محكمة تقوم على استدراج الجيش الفارسي إلى الاشتباك المباشر، ثم تطويقه من أكثر من اتجاه. وبينما كانت القوة الرئيسة تخوض القتال في مواجهة الفرس، كانت وحدتان من فرسان المسلمين قد اتخذتا مواقع خفية خلف ميدان المعركة، وما إن اشتد القتال حتى انقضتا على ميمنة الجيش الفارسي وميسرته، في الوقت الذي هاجمت فيه قوة أخرى مؤخرة

---

(١) وهي موقع قريب من القادسية . معجم البلدان : ٣٨٣/٥ . وتقع حالياً قرب مدينة (سوق الشيوخ) باتجاه الشمال الغربي.

الجيش، فأصبح الفرس محاصرين من جهات متعددة، وانهارت صفوفهم في وقت قصير، وتحولت المعركة إلى هزيمة ساحقة.

وقد فرَّ قائد الفرس الأندرزغر مع نفرٍ من جنوده في محاولة للوصول إلى المدائن وإعادة تنظيم القوات، إلا أن مشقة الفرار والعطش أنهكتهم، فهلكوا قبل أن يبلغوا مقصدهم، وتمثل معركة الولجة إحدى أبرز الوقائع العسكرية في المرحلة الأولى من فتح العراق؛ إذ أظهرت جانبًا من الكفاءة القيادية لخالد بن الوليد، ولا سيما في توظيف المناورة والتطويق، وهي الخطة التي عدّها عدد من الباحثين العسكريين من أنجح أساليب القتال في تاريخ الحروب القديمة، لما أحدثته من انهيار سريع في صفوف الجيش الساساني، ومهّدت لانتصارات المسلمين اللاحقة في العراق[١].

٥. **معركة أُلَّيْس**[٢] : وحدثت أيضاً في صفر من سنة **١٢**هـ ، وفيها انضم بعض نصارى العرب إلى الفرس ، وكانوا تحت أمرة (بهمن جاذويه) ، فلما بلغ خالد بن الوليد تجمعهم ، سار إليهم ، فحدث بين الفريقين قتل عنيف ، وصبر المسلمون حتى كشفهم الله تعالى للمسلمين ، وانهزم الجمع لا يلوون

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣/٣٥٣) ؛ ابن كثير (البداية والنهاية : ٦/٣٤٥) .

(٢) قال ياقوت الحموي : وتقع أول أرض العراق من ناحية البادية (معجم البلدان : ١/٢٤٨) . قلت: وتسمى حالياً (البطحاء) وتقع بين الناصرية والديوانية .

على شيء ، وبعد فراغ المسلمين من أليس ، أتوا (أمغشيا) [١] ففتحوها وغنموا منها غنائم كثيرة[٢] .

٦. **فتح الحيرة**[٣] : وحدثت في ربيع الأولى سنة **١٢** ، بعد أن حاول مرزبان الحيرة التصدي لجيش خالد بن الوليد ، فأرسل ابنه لقتال المسلمين ، ولكنه قتل وتفرق جيشه ، ففر المرزبان هارباً من غير قتال ، فقسم خالد بن الوليد جيشه إلى ثلاث فرق الأولى بقيادة ضرار بن الأزور لمحاصرة القصر الأبيض، والثانية بقيادة ضرار بن الخطاب لمحاصرة قصر العدسيين ، والثالثة بقيادة : المثنى بن حارثة لمحاصرة قصر ابن بقيلة ، وبعد مناوشات بين الطرفين ، أيقن أهل هذه الحصون أن لا قبل لهم بالمسلمين فنزلوا على حكمهم ، وتصالحوا مع خالد بن الوليد على الجزية[٤].

٧. **فتح الأنبار** : وكان ذلك في رجب سنة **١٢** ، إذ اتجه خالد بن الوليد من الحيرة إلى الأنبار ؛ لإغاثة عياض بن غنم – الذي أرسله الخليفة الصديق رضي الله

---

(١) كانت مصراً كالحيرة ، ينتهي إليها فرات بادقلي . معجم البلدان : ١/ ٢٥٤ . قلت وهي في منطقة البطحاء أيضاً لكنها أقرب للديوانية من ناحية الجنوب الغربي.

(٢) الطبري (التاريخ : ٣/٣٥٧) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٣/٢٣٨) .

(٣) هي قرب الكوفة ، وتقع ما بين الكوفة والنجف ، ونظراً للامتداد العمراني ، بين هاتين المدينتين ، فقد اختفت ولم يعد لها وجود حالياً .

(٤) البلاذي (فتوح البلدان : ص ٢٤١) ؛ الطبري (التاريخ : ٣/ ٣٦٠) .

عنه لفتح العراق من الشمال - فلما وصل خالد ، وجد القوم قد تحصنوا وخندقوا على أنفسهم ، وأشرفوا على أعلى الحصون ، فضرب المسلمون عليهم الحصار ، ولكن سرعان ما اقتحم المسلمون الخندق، فالتجأ العدو إلى الحصن ، واضطر شيرزاد قائد الفرس إلى قبول الصلح بشروط المسلمين[1].

٨. **معركة عين التمر**[2] : وحدثت في رجب سنة **١٢** أيضاً ، إذ أن خالد بن الوليد استخلف الزبرقان بن بدر على الأنبار ، وسار إلى عين التمر ، فوجد عقة بن أبي عقة ، مع جمع من نصارى العرب من النمر وتغلب وإياد ، ومن حالفهم ، ومن خلفهم الفرس بقيادة مهران، وما كادت المعركة تبدأ حتى وقع عقة بالأسر ، ففر اتباعه وتحصنوا بالحصن ، فقصد خالدٌ الحصن ، فلما بلغ مهران قائد الفرس - هزيمة نصارى العرب - هرب وتركهم ، وسرعان ما نزل أهل الحصن على حكم المسلمين[3] ، وفي هذا الحصن وجد فيها

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣/٣٧٣) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢/٢٤١) .

(٢) قال ياقوت : بلدة قريبة من الأنبار غربي الكوفة . (معجم البلدان : ٤/١٧٦) . قلت ولازالت تحمل الاسم نفسه ، وهي حالياً مدينة مأهولة بالسكان ، تابعة إدارياً لمحافظة كربلاء ، وتقع باتجاه الغرب على بعد ٦٧كم من مركز المحافظة.

(٣) البلاذري (فتوح البلدان : ص ٢٤٥) ؛ الطبري (التاريخ : ٢/٣٧٦) .

كنيسة وفيها غلمان يتعلمون الإنجيل ، ومن هؤلاء الغلمان : كان حمران مولى عثمان بن عفان رضي الله عنه ، ومنهم سيرين : والد محمد بن سيرين ، ويسار: ومن ذريته محمد بن إسحاق صحاب السيرة[١] .

٩. **معركة الحَصِيْد** : وقيل الحُصيَّد (بالتصغير) [٢] : كان خالد بن الوليد قد استعمل : القعقاع بن عمرو على الحيرة ، والأقرع بن حابس على الأنبار ، ومكث هو بدومة الجندل ، وفي هذه الأثناء كتب عرب العراق للفرس : أن يكونوا لهم عوناً في حرب المسلمين ، فخرج الفرس بقيادة زرمهر وروزبة ، وتواعدوا جميعاً في (الحصيد) ، فخرج إليهم القعقاع ، وجاءه مدد مع أعبد بن فدكي السعدي ، وعروة بن الجعد البارقي ، والتقى الجمعان بجموع الفرس ، ومن معهم من العرب ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة من بينهم : زرمهر ، وروزبة ، وغنموا غنائم كثيرة[٣].

---

(١) خليفة (التاريخ : ١١٨) ؛ الدينوري (الأخبار الطوال : ١١٢) .

(٢) قال ياقوت الحموي (معجم البلدان: ٢/٢٦٦) : ((موضع في أطراف العراق من جهة الجزيرة)) . وهذا الكلام يرجح أنها كانت تقع بادية النجف ، باتجاه الجنوب الغربي.

(٣) الطبري (التاريخ : ٣/٣٧٩) ؛ ابن الجوزي (المنتظم : ٤/١٨٠) .

١٠. **معركة المُصَيَّخ**[١]:كانت بعض القبائل قد تجمعت في (المصيخ) ، مستغلةً انشغال المسلمين بالحصيد ، فباغتهم خالد بن الوليد ، فأوقع بهم خسائل فادحة ، وتفرق شملهم[٢].

١١. **معركة الفِرَاض**[٣] : بعد أن أمَّن خالد بن الوليد الطريق إلى العراق ، قصد الفراض ، وهي نقطة الاتصال ما بين الشام والعراق والجزيرة ، فلما اجتمع المسلمون فيها ، توجه إليهم الروم مع من بقي من مسالح الفرس[٤] ، والتحق بهم بعض العرب ، فالتقى الجمعان في النصف من ذي القعدة سنة **١٢**هـ ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، ثم أنزل الله تعالى نصره على خالد وجنده [٥].

---

(١) قال ياقوت الحموي (معجم البلدان: ١٤٤/٥) : ((يقال له مصيخ بني البرشاء: وهو بين حوران والقلت وكانت به وقعة هائلة لخالد على بني تغلب)) .

(٢) الطبري (التاريخ : ٣٨٠/٣) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢٤٤/٢) .

(٣) قال ياقوت الحموي (معجم البلدان: ٢٤٣/٤) : ((موضع بين البصرة واليمامة قرب فليج من ديار بكر بن وائل)) .

(٤) أصحاب المسالح: جماعات تكون بالثغر يحمون البيضة، والمسلحة هي الثغر . (لسان العرب : ٤٨٧/٢) .

(٥) الطبري (التاريخ : ٣٨٣/٣) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٣٤٥/٢) .

١٢. **معركة النمارق**[١] : وقعت في شعبان سنة **١٣**هـ ، وكانت أول معركة في العراق بعد وفاة الخليفة الصديق ، وتولي عمر الفاروق الخلافة رضي الله عنهما، إذ وجه الأخير رضي الله عنه أبا عبيد بن مسعود الثقفي للاستجابة ؛ لنداء المثنى بن حارث الشيباني ، الذي أرسل بتجمع الفرس من جديد بقيادة (جابان) ، وسرعان ما التقى الجمعان في النمارق ، فأنهزم الفرس مع قائدهم ، وقتل أحد مساعديه وأسر الآخر[٢] .

١٣. **معركة السَّقَاطِيَةُ**[٣]: توجه من نجا من الفرس من معركة النمارق إلى كسكر ؛ لينظم إلى جيش (نرسي) ، وأرسل قائد جيوش الفرس (رستم) جيشاً أخراً لتعزيز جيش (نرسي) بقيادة الجالينوس ، لكن الأخير تلكأ ، فالتقى أبا عبيد بجيش نرسي في السَّقَاطِيَةُ ، وذلك في **١٢** شعبان سنة **١٣**هـ ، فهزمهم شر هزيمة ، وفر (نرسي) بجلده[٤] .

---

(١) موضع قرب الكوفة ، وقيل فوق القادسية . (معجم البلدان : ٣٠٤/٥) .

(٢) الطبري (التاريخ : ٤٤٨/٣) ؛ ابن الجوزي (المنتظم : ١٤٦/٤) .

(٣) ناحية بكسكر من أرض واسط . (معجم البلدان : ٢٢٦/٣) . قلت وهي تقع حالياً بالقرب من مدينة (شيخ سعد) على نهر دجلة.

(٤) الطبري (التاريخ : ٤٥٠/٣) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢٧٥/٢) .

١٤ . **معركة باقُسْيَاثا**[1]: سار أبو عبيد بعد القضاء على جيش (نرسي) ، وتشتيت شمله ، إلى باقُسْيَاثا ، حيث عسكر جيش القائد الفارسي (الجالينوس) للتو ، فداهمه جيش المسلمين وهم على تعبهم ، فهزمهم المسلمون وهرب الجالينوس، وغلب أبو عبيد على تلك البلاد، ثم ارتحل حتى قدم الحيرة[2].

١٥ . **معركة الجسر** : ووقعت في **٢٣** شعبان **١٣**هـ ، فبعد أن أثار الانتشار الواسع للمسلمين في قرى السواد ، حفيظة الفرس ، الذين بدأوا يستوعبون مقدار الخطر الحقيقي الذي يهددهم، فجهزوا جيشًا آخر قوامه اثنا عشر ألف مقاتل، وأرسلوه إلى الحيرة، بقيادة بهمن جاذوبه - وهو أشد العجم على العرب المسلمين - ورافقه الجالينوس ، وعندما تناهى إلى أسماع أبي عبيد الثقفي أن الجيش الفارسي هدفه الحيرة، قرر أن يصطدم به خارجها، فعبر الفرات واستعد لمواجهتهم ، رغم نصح مستشاري أبي عبيد بعدم العبور للفرس ، وأنهم أهل خداع ومكر ، إلا أنه أصر على العبور ، فوقع الجيش المسلم بين سندان الفيلة ونهر الفرات ، ومما من حراجة الموقع العسكري للمسلمين : أن أبا عبيد قطع الجسر الذي عبروا عليه ، فاستشهد هو وبعض

---

(١) ناحية بأرض السواد من عمل بارسما . (معجم البلدان : ٣٢٧/١) . قلت : وتقع حالياً ضمن حدود محافظة واسط

(٢) الطبري (التاريخ : ٤٥٣/٣) .

مساعده تحت أقدام الفيلة ، وبنظرته العسكرية الثاقبة : أعاد المثنى بن حارثة الشيباني خطط للانسحاب ، آملاً أن يرتد المسلمون في نظام وهدوء، فعقد الجسر، لكن عبد الله بن مرثد الثقفي بادر إلى قطعه مرة ثانية ، ومنع الجنود من العبور ؛ حتى يموتوا على ما مات عليه أمراؤهم أو يظفروا، عندها تعرض المسلمون لضغط قتالي متزايد ، فلم يكن أمامهم سوى طريق النهر للفرار، فتواثبوا إليه، فغرق من لم يصبر ، في حين أسرع القتل فيمن صبر، وأخيرًا تمكن المثنى الذي جرح في المعركة من إعادة وصل الجسر، وانسحب مع من بقي من أفراد الجيش باتجاه أليس ، وكان انتصار الفرس واضحًا، على الرغم من تكبدهم ستة آلاف قتيل، وخسر المسلمون أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وفر ألفان، وصمد ثلاثة آلاف مع المثنى(١).

١٦. **معركة البُوَيْبُ**(٢) : حدثت بعد شهر من معركة الجسر ، إذ أراد الفرس أن يستغلوا انتصارهم في تلك المعركة ، فجهزوا جيشاً عظيماً بقيادة (مهران) وبصحبتهم ثلاثة فيلة ، وما كان للمسلمين أن يكرروا الخطأ نفسه في معركة الجسر ، فامتنعوا من عبور النهر ، فعبر إليهم الفرس ، ثم اشتبكا في رحى

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣/٤٥٧) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢/٢٧٨) .

(٢) نهر كان بالعراق موضع الكوفة، فمه عند دار الرزق يأخذ من الفرات . (معجم البلدان : ١/٥١٢) . قلت : ويسمى حالياً (شط الحلة) .

معركة طاحنة، وأدار المثنى المعركة بحكمة بالغة ، مما كفل له النصر، وقتل مهران في المعركة، وتشتت جيشه، وفر أفراده في فوضى واضطراب، فطاردهم المسلمون مدة يومين حتى السيب، وهو موضع على نهر دجلة[١].

١٧. **معركة القادسية** : حدثت معركة القادسية في المحرَّم سنة (**١٤** هـ) على أرجح الأقوال ، وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قد عسكر خارج المدينة النبوية يريد الغزوَ بنفسه، فاجتمع إليه الناس ومنعوه ، وأشار عليه عبد الرحمن بن عوف بعدم الخروج ، وأن يولي على الجيش سعد بن أبي وقاص ، فأخذه عمر رضي الله عنه بمشورته ، وسيَّر سعداً إلى العراق في أربعة آلاف ، واجتمع لسعد في القادسية أكثر من ثلاثين ألف مقاتل ، وأقام بها سعد شهراً كاملاً يُرسل السّرايا إلى جميع الجهات من حوله ويأتون بالغنائم، فلمّا سمع يزدجرد أمير الفرس بذلك، أمر بجيش من مئة ألف مقاتل بمددهم وعدّتهم، فقام سعد بإرسال من يدعوه إلى الإسلام لكنّه رفض، ثم عبأ رستم قواته في ثلاثة عشر صفًا ، الواحد تلو الآخر، فوضع الهرمزان على الميمنة ، والجالينوس على يساره، ووضع مهران على الميسرة، واختص هو بالقلب، وضرب لنفسه قبة نصب فيها سريره الفخم، وعين بهمن في الوسط بينه، وبين الجالينوس وبيرزان على يساره، ووزع الفيلة في

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣/٤٦٠) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢/٢٧٩) .

مؤخرة القلب، وفي الميسرة والميمنة، ووضع الرجال على مسافات قصيرة؛ لإيصال أخبار المعركة إلى المدائن، وهذا نظام مستحدث بدلًا من نظام البريد التقليدي، وفي المقابل، عبأ سعد قواته، فعين زهرة بن حوية التميمي على المقدمة، ووضع عاصمًا بن عمرو التميمي في الوسط بين ميمنة عبد الله بن المعتم العبسي، وميسرة شرحبيل بن السمط الكندي، وعين صاحب الطلائع سوادًا بن مالك الأسدي على الطراز -المبارزة- وشغل المسافات والفجوات، فخلط بين الجند في القلب، والميمنة والميسرة، واعتمد في اتصاله بالمدينة على البريد اليومي ، وكان مصير فارس يتوقف على نتيجة المعركة، فإذا لم يضرب رستم المسلمين في القادسية، فسوف ينهار سلطان الأكاسرة، وتزول هيبة الفرس، لذلك كان الفرسان يتحرقون شوقًا للقاء المسلمين، فبدأت واحدة من أعظم المعارك في التاريخ ، وتقاتلوا ثلاثة أيام، وفي اليوم الرّابع حمي الوطيس ، فأرسل الله ريحاً شديدة اقتلعت خيم الفرس ، ففرّوا هاربين من أرض المعركة[1] .

١٨. **فتح المدائن** : وكان ذلك في صفر من سنة **١٦**هـ ، وكان على المسلمين قبل التوجه إلى المدائن أن يفتحوا حصن بهرسير ، الذي كان يشكل خط الدفاع الأول والأساسي للمدائن ، عاصة الفرس ومقر الكسرى يزدجرد ، وبعد

(١) الطبري (التاريخ : ٣/٤٧٧ وما بعدها) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٢/٢٨٧ وما بعدها).

حصار استمر بضعة أشهر ، سقط الحصن بيد المسلمين ، وبذلك أصبح الطريق سالكاً للوصول إلى المدائن من الناحية العسكرية ، أما من الناحية الجغرافية ، فكان نهر دجلة يشكل عائقاً طبيعياً بوجه المسلمين، لكن توصل المسلمين – بمعونة رجل فارسي – من العبور إلى الضفة الأخرى ، وقد تصدت للجيش الإسلامي بعض الحاميات الفارسية ، لكنها سرعان ما هُزمت أمام الجيش الإسلامي ، وكان يزدجر قد هرب عند سماعه بعبور المسلمين للنهر ، وفضل النجاة بنفسه ، ودخل سعد بن أبي وقاص المدائن منتصراً ، ودون مقاومة تذكر ، ونصب المنبر مكان العرش الملكي ، وصلى بالمسلمين صلاة الجمعة[١].

١٩. **فتح جلولاء** : وهي المدينة التي فرَّ إليها (يزدجرد) كسرى الفرس، وتجمع معه الفرس هناك، فتحصنوا بها، فتقدم إليها المسلمون وفتحوها، وانتصروا انتصارًا عظيمًا، ولم تقل غنائمها عن المدائن[٢] .

٢٠. **معركة تكريت** : بعد انهيار الدولة الساسانية التي كانت تسيطر على جنوب ووسط العراق ، اتجهت انظار المسلمين إلى الشمال ؛ من أجل تأمين العراق كاملاً قبل التوجه لفتح بلاد فارس ، ولم يكن هذا الجزء خاضعاً للفرس ،

---

(١) الطبري (التاريخ : ٤/١١) ؛ ابن الجوزي (المنتظم : ٤/٢٠٦) .

(٢) الطبري (التاريخ : ٤/٣٢) .

وإنما كان تحت سيطرة الروم ، فاتجهت جيوش المسلمين نحو الشمال ، وما أن سمع الروم بذلك حتى احتشدوا بقيادة (الأنطاق) ، وانضمت إليهم بعض قبائل العرب المتنصرة، مثل إياد وتغلب، والنمر ، وعسكروا في تكريت على نهر دجلة شمالي المدائن، وتحصنوا بها ، فأرسل سعد إلى الخليفة عمر رضي الله عنهما ، يخبره بأمر هذه الحشود، فجاءت تعليماته بأن يرسل فرقة عسكرية بقيادة : عبد الله بن المعتم، فنفذ سعد تعليمات عمر رضي الله عنه ، فأرسل هؤلاء النفر في خمسة آلاف مقاتل، فخرجوا من المدائن، ووصلوا إلى تكريت بعد أربعة أيام، وضربوا عليها حصارًا مركزًا استمر مدة أربعين يومًا، واستطاع عبد الله بن المعتم أن يستميل القبائل العربية إلى الإسلام ، وأسلم عدد كبير منهم ، وعند حدوث المعركة الفاصلة بين الطرفين ، تم القضاء على الجيش البيزنطي هناك ، وفتحت تكريت في جمادى الأولى **١٦**هـ[١].

٢١. **فتح الموصل ونينوى** : بعد معركة تكريت ، أرسل عبد الله بن المعتم : ربعيًا بن الأفكل : إلى الموصل ونينوى ، على رأس أربعة آلاف مقاتل ، وانظم إليه جموع من العرب الذين اسلموا في تكريت ، فاتبع عبد الله أسلوب السرعة والسبق ؛ حتى يفاجئ حامية الحصنين، وفعلاً فوجئت حاميتا

---

(١) الطبري (التاريخ : ٣٥/٤) ؛ ابن الأثير (الكامل : ٣٤٨/٢) .

الحصنين بوصول المسلمين ، الذين بدأوا فورًا عملية اقتحام منظمة، فاضطرتا إلى الاستسلام وطلب الصلح، فأجابهما عبد الله[١] .

٢٢. **فتح هيت وقرقيسياء**[٢] : أرسل سعد : عمر بن مالك بن عتبة على رأس فرقة عسكرية إلى هيت ، بناء على تعليمات عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما وصل إليها حاصرها، وفصل قسمًا من جيشه لحصار قرقسياء، فاستلمت المدينتان[٣].

٢٣. **فتح مَاسَبَذَانُ**[٤] : احتشدت قوة عسكرية، ممن فر من الفرس من جلولاء، في ماسبذان على الحدود الفاصلة بين العراق من الغرب، وفارس من الشرق، بقيادة آذين بن الهرمزان، فأرسل إليهم سعد : ضرارًا بن الخطاب ، على رأس قوة عسكرية بناءً على أوامر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه ، وانتهى المسلمون إلى سهل ماسبذان، فالتقوا بالقوة الفارسية في بهندف، وجرت بينهما معركة أسفرت عن انتصار المسلمين، وتشتت الفرس ، وأسر آذين

---

(١) الطبري (التاريخ : ٤/٣٨) .

(٢) قرقيسياء: بلد على نهر الخابور، قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ، وعندها مصب الخابور في الفرات . (معجم البلدان : ٤/٣٢٨) .

(٣) الطبري (التاريخ : ٤/٣٨) ؛ ابن كثير (البداية والنهاية : ١٠/٢٩) .

(٤) وهو موضع بالعراق قرب بندنيجين . (معجم البلدان ٥/ ٤١) . قلت: وتسمى حالياً (بنجوين) وتقع في الجانب الإيراني قرب الحدود العراقية.

فقتله ضرار، ودخل المنتصرون المدينة ، وفر سكانها إلى الجبال، فدعاهم ضرار إلى العودة لقاء الأمان، ودفع الجزية فعادوا[١].

٢٤. **معركة نهاوند**[٢]: حدثت في سنة **٢١هـ،** وسُمِّيت : بـ(فتح الفتوح) ؛ لأن الفرس بعد هزيمتهم في هذه المعركة لم تَقُم لهم قائمة ، وسبب هذه المعركة :أن مَلِك الفرس قد جمع جموعًا عظيمة بنهاوند ، وجعل عليهم (ذا الحاجب) قائدًا، فلما بلغ ذلك عمرَ بن الخطاب رضي الله عنه، أرسل إلى النعمان يولِّيه قيادة الجيش المتَّجِه إلى نهاوند، وكان معه عددٌ من الصحابة مثل: حُذيفة بن اليمان، وعبدالله بن عمر، وجَرير بن عبدالله البَجَلي، والمُغيرة بن شعبة، وغيرهم من أبطال المسلمين، ولما وصل الجيش إلى نهاوند، إذا به يتفاجأ بحسكِ الحديد يدخل في حافر فرس، فتوقَّف الجيش، ثم اكتشفوا أن العجم قد بثوا الحسك في الطريق، فاستشار النعمان أصحابه فيما يفعله، فقالوا: نريهم أننا منهزمون ثم نكرُّ عليهم، ففعلوا ذلك، فخرج الفرس في إثرهم بعد أن كنسوا الحسك، فانعطف عليهم المسلمون ، بعد أن عبأ النعمان كتائبَه ، وصلَّى بالمسلمين الذين معه الجمعة، ودارت معركةٌ حامية بين الطرفين، وكان الفرس قد شدُّوا جنودهم بالسلاسل؛ حتى لا

(١) الطبري (التاريخ : ٣٧/٤) .

(٢) وتقع حالياً قرب مدينة قمشة الإيرانية.

يفرُّوا، لكن الدائرة دارت عليهم وبدا تفوق المسلمين، وفي خضمِّ هذه المعركة أصيب النعمان بسهم قاتل، فسقط شهيدًا، وكان بجانبه أخوه سُويد، فلبس ثيابه وقاتَلَ ، وهو يكتم خبر استشهاد أخيه؛ حتى لا يصاب الجند بالجزع والتردد ، فتنقلب نتيجة المعركة، ولما فتح الله على المسلمين نهاوند، دفع سويد الرايةَ إلى حذيفة بن اليمان؛ حيث أوصى له النعمان بالقيادة إن استشهد ، وقد سمى المؤرخون هذه المعركة بـ (فتح الفتوح) ، وقال عنها الطبري: « لم تقم للفرس بعدها قائمة ولم تجتمع لهم كلمة» (١).

وقد أعقب معركة نهاوند فرارُ آخر ملوك الساسانيين، يزدجرد الثالث، بعد أن مُني جيشه بهزيمة قاصمة أفقدت الدولة الساسانية قدرتها على تنظيم مقاومة عسكرية فعالة، وإدراكًا من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأهمية استثمار هذا التحول الاستراتيجي، وجَّه الجيوش الإسلامية إلى مواصلة التقدم داخل الأقاليم الفارسية، لتأمين المناطق المفتوحة ومنع الفرس من إعادة تجميع قواتهم أو استعادة زمام المبادرة.

وقد أسفرت هذه السياسة عن توالي فتح المدن والأقاليم الفارسية، إذ استسلم كثير منها، بينما فُتح بعضها الآخر بعد مقاومة محدودة، نتيجة الانهيار الذي أصاب البنية العسكرية والإدارية للدولة الساسانية، وما خلّفته هزيمة

(١) البلاذي (فتوح البلدان : ١٩٨) ؛ الطبري (التاريخ : ٤/١٣٣) .

نهاوند من أثر بالغ في معنويات قادتها وجندها. كما أسهمت حالة الاضطراب السياسي، وتنافس قادة الأقاليم، وانقطاع السلطة المركزية، في تسريع وتيرة الفتوح الإسلامية وتقليص قدرة الفرس على تنظيم دفاع موحد.

وخلال العام الأخير من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، كانت معظم أقاليم الدولة الساسانية قد دخلت تحت السيادة الإسلامية، ولم يبق ليزدجرد الثالث سوى التنقل بين أطراف مملكته طلبًا للنصرة، حتى انتهى الأمر بسقوط الدولة الساسانية سقوطًا نهائيًا بعد سنوات قليلة. وبذلك لم تمثل معركة نهاوند مجرد انتصار عسكري، بل كانت نقطة التحول الكبرى التي أنهت واحدة من أعرق الإمبراطوريات في الشرق الأدنى، وفتحت أمام المسلمين آفاق التوسع في أقاليم فارس وخراسان وما وراء النهر، لترتبط تلك الأقاليم لاحقًا بالحضارة الإسلامية، وتصبح من أهم مراكزها العلمية والفكرية والسياسية عبر القرون التالية.

المبحث الخامس
تمصير الأمصار بالعراق

تمصير البصرة :

البصرة اسمٌ ذو دلالة لغوية ارتبطت بطبيعة الأرض التي قامت عليها؛ فقد ذكر أهل اللغة أن البَصْرة تعني الأرض الغليظة ذات الحجارة الصلبة، وقيل: هي الأرض التي تكثر فيها الحصى، وقيل أيضًا: الحجارة البيضاء الرخوة، ويبدو أن هذه الدلالة اللغوية تنسجم مع طبيعة الموضع الذي اختير لإنشاء المدينة، إذ كانت أرضها في الأصل من الأراضي التي تتصف ببعض الخصائص الجغرافية الخاصة، قبل أن تتحول إلى أحد أهم الأمصار الإسلامية.

وتقع البصرة عند ملتقى نهري دجلة والفرات، حيث يلتقيان ليشكلا شط العرب، وقد كان لاختيار موقعها ارتباط وثيق بالتصور الذي وضعه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إنشاء الأمصار الإسلامية؛ إذ كان يحرص على أن تجمع المدن الجديدة بين القرب من مصادر المياه، ووجود المراعي، وسهولة الاتصال بمناطق الريف، بما يحقق حاجات الجند والسكان، ويجعلها مراكز عسكرية واقتصادية في آنٍ واحد.

وقد استشار عتبة بن غزوان رضي الله عنه الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في موضع تمصير البصرة، فأمره أن يختار مكانًا قريبًا من الماء والمرعى، فوقع

اختياره على الموضع الذي قامت عليه المدينة لاحقًا، وكتب إلى عمر ﵁ يصف المكان بأنه أرض تقع على طرف البر المؤدي إلى الريف، وتوجد بالقرب منها منابع ومنافع مائية، وفيها نبات القصب بكثرة. فأجابه عمر بالأمر بالنزول فيها، فكان ذلك بداية تأسيس أحد أهم الأمصار الإسلامية في العراق.

وقد بُنيت البصرة في بدايتها بمواد بسيطة تتناسب مع طبيعة البيئة المحيطة، فشُيّد مسجدها ودار الإمارة من القصب، كما بنى الناس دورهم من القصب أيضًا، لكثرته وتوفره في المنطقة ، وكان أهلها إذا خرجوا للغزو نزعوا القصب وحزموه، ثم أعادوا بناء مساكنهم عند عودتهم، مما يعكس طبيعة الحياة العسكرية المتحركة في المرحلة الأولى من تأسيس الأمصار.

ثم لما أصاب القصبَ حريقٌ، استأذن أهل البصرة الخليفة عمر بن الخطاب ﵁ في البناء باللبن، فأذن لهم في زمن ولاية أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بعد وفاة عتبة بن غزوان سنة ١٧هـ، فبُني المسجد ودار الإمارة باللبن والطين، ثم تطور البناء لاحقًا باستخدام الحجارة والآجر، مع توسع المدينة واستقرار سكانها.

وقد نُظمت البصرة وفق نظام تخطيطي يتلاءم مع طبيعة المجتمع القبلي في ذلك العصر؛ فقُسمت إلى خطط سكنية لقبائل أهلها، وجُعل عرض شارعها الرئيس، المعروف بـ المِرْبَد، نحو ستين ذراعًا، بينما كانت بقية الشوارع بعرض عشرين ذراعًا، والأزقة بسبعة أذرع، وجُعل في وسط كل خطة موضع واسع

يجتمع فيه أهلها، وتُربط فيه الخيول، وتُدفن فيه موتاهم، ومع مرور الزمن تحولت البصرة من معسكر عسكري إلى مدينة حضارية كبرى، أصبحت من أهم مراكز العلم والتجارة والحديث في العالم الإسلامي.

وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ تمصير البصرة؛ فذهب بعضهم إلى أن نزول المسلمين بها كان سنة **١٤**هـ، بينما رأى آخرون أن اكتمال تخطيطها وتنظيمها العمراني لم يتم إلا سنة **١٧**هـ، وهو ما يفسر اختلاف الروايات بين تاريخ الاستقرار الأول وتاريخ اكتمال بناء المدينة بوصفها مصرًا إسلاميًا قائمًا.

إن هذه الإشارات التاريخية تضيف بُعدًا مهمًا، وهو أن البصرة لم تُنشأ مجرد معسكر عسكري، بل تحولت تدريجيًا إلى مركز حضاري واقتصادي وعلمي، وهو جانب مهم عند دراسة نشأة الأمصار الإسلامية[١].

أما القبائل التي سكنت البصرة بعد تمصيرها فهي :

١. **أهل العالية** : وهم أهل الحجاز ، وكان بعضهم من أقدم مقاتلة البصرة، وأغلبهم من قبيلة ثقيف[٢] .

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان : ٣٣٨) ؛ عبد الحكيم الكعبي (عصر الخلفاء الراشدين : ١٥٠) .

(٢) ماسنيون : خطط البصرة : ١٦ .

٢. **قبيلة الأزد** : ومن هؤلاء أزد عمان ، وقد كان لهم أثر في نقل خبرتهم المعروفة بالتجارة والملاحة[١] .

٣. **بكر بن وائل** : وينتمون إلى قبائل ربيعة التي نشطت على حدود الدولة الساسانية قبل الفتح الإسلامي ، ثم اصبحوا حراساً للطرق التجارية وطريق الحج المار بالعراق إلى مكة[٢].

٤. **تميم** : هي أحدى القبائل العربية المعروفة ، وقد كان لها نصيب في الاستيطان في البصرة منذ بداية تأسيسها ، وظهر منها عدد من الرجال الذين شغلوا مناصب إدارية مهمة [٣].

٥. **عبد القيس** : وهي أقل القبائل عدداً ، والمعلومات عن خططها وعشائرها في البصرة قليلة جداً [٤].

---

(١) المصدر السابق : ص١٨ .

(٢) صالح العلي ، خطط البصرة : ص ٨١.

(٣) ماسنيون ، خطط البصرة : ١٩ .

(٤) صالح العلي ، خطط البصرة : ص٨٧ .

تمصير الكوفة:

اختلفت أقوال أهل اللغة والمؤرخين في أصل تسمية الكوفة؛ فقيل:سُمّيت بذلك لاجتماع الناس فيها، إذ إن لفظ الكوفة يدل في بعض استعمالاته على الرملة المجتمعة، وقيل: هي الرملة الحمراء، وهي أوصاف ترتبط بطبيعة الأرض التي قامت عليها المدينة(١).

ويجمع المؤرخون على أن الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه كان المؤسس الأول للكوفة، إذ اختار موضعها، وأمر بتخطيطها بعد الانتصارات التي حققها المسلمون في جبهة العراق، ولا سيما بعد فتح المدائن، عاصمة الدولة الساسانية ، ولم يكن اختيار هذا الموقع أمرًا عارضًا، بل جاء استجابة لحاجة عسكرية وإدارية فرضتها المرحلة الجديدة؛ فقد احتاج المسلمون إلى إنشاء مركز ثابت لجيوشهم يكون قريبًا من مناطق العمليات العسكرية، ومتصلاً بطرق الإمداد، وقادرًا على استيعاب أعداد المقاتلين الذين شاركوا في الفتوحات.

وكما كان الحال في تأسيس مدينة البصرة، فقد لعب العامل العسكري الدور الأساس في نشأة الكوفة؛ إذ كانت في بدايتها معسكرًا للمجاهدين، ثم تحولت مع مرور الزمن إلى مدينة مستقرة ذات أهمية سياسية وحضارية ، وقد جاء إنشاء الكوفة تنفيذًا لتوجيهات الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي كان يولي

---

(١) ياقوت الحموي (معجم البلدان : ٤/ ٤٩٠) .

عناية كبيرة باختيار مواقع الأمصار الجديدة، بحيث تجمع بين القرب من مصادر المياه، وصلاحية الموقع للسكن، ومراعاة الظروف الصحية والبيئية، إضافة إلى قربها من ميادين الجهاد.

وقد التزم سعد بن أبي وقاص بهذه المعايير عند اختياره لموضع الكوفة، فاختار أرضًا تتوافر فيها شروط الاستقرار، وتصلح لأن تكون قاعدة عسكرية وإدارية للمسلمين في العراق. ومن هنا أصبحت الكوفة، إلى جانب البصرة، أحد أهم الأمصار التي أنشأها المسلمون في العراق، وكان لها أثر بالغ في التاريخ السياسي والعلمي للحضارة الإسلامية؛ إذ غدت لاحقًا مركزًا للفقه والحديث واللغة، ومقرًا للعديد من الأحداث الكبرى في التاريخ الإسلامي[1].

لقد أدرك الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه - من خلال وفود أهل القادسية والمدائن إلى المدينة - أن تغيرًا قد طرأ على أحوالهم وأجسامهم، ولاحظ ما ظهر عليهم من أثر البيئة الجديدة، فربط ذلك بما وصفه المؤرخون بـ وخامة أرض العراق بالنسبة للعرب الذين اعتادوا طبيعة الجزيرة العربية، ولذلك كتب إلى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يأمره بالبحث عن موضع آخر يكون أوفق لطبيعة العرب، فقال له أن يتخذ لهم منزلًا : « يوافقهم كما يوافق إبلهم » ، أي مكانًا تلائم بيئته طبيعة حياتهم وصحتهم.

---

(١) ابن الأثير (الكامل في التاريخ : ٢/٥٢٩) .

وأرسل سعدٌ سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان رضي الله عنهما لاستكشاف الموضع المناسب، فخرجا حتى انتهيا إلى المنطقة الواقعة بين الحيرة والفرات، فاختارا الموقع الذي قامت عليه مدينة الكوفة لاحقًا. وقد قيل في سبب تسميتها إن الكوفة مأخوذة من طبيعة أرضها، فهي أرض تجمع بين الرمل والحصباء، ومن ذلك قولهم: كل أرض اختلط رملها بالحصباء فهي (كوفة).

وانتقل سعد بن أبي وقاص من المدائن إلى موضع الكوفة في محرم سنة ١٧هـ، فكانت في بدايتها معسكرًا عسكريًا للمسلمين، ثم أخذت تتحول تدريجيًا إلى مدينة مستقرة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه حريصًا في أول الأمر على بقاء المسلمين على حال المعسكر، فأراد أن يسكنوا في الخيام؛ لأن ذلك - في نظره - أقرب إلى حياة الجندية، وأحفظ لروح الاستعداد والمرابطة، وأشد تأثيرًا في نفوس الأعداء، إذ يبقى الجيش في حالة حركة ويقظة ولا يركن إلى مظاهر الاستقرار والترف.

غير أن أهل الكوفة والبصرة لما استأذنوا في بناء مساكن من القصب، لم يرَ عمر رضي الله عنه منعهم من ذلك، فأذن لهم، فبنوا بيوتهم بالقصب مراعاة لحاجتهم إلى السكن والاستقرار، ثم وقع حريق في الكوفة والبصرة أتى على كثير من تلك المباني، فطلب أهلها الإذن بالبناء باللبن، فأذن لهم عمر رضي الله عنه، لكنه وضع ضوابط عمرانية دقيقة، فقال: « افعلوا، ولا يزيدن أحدكم على ثلاث

أبيات، ولا تطاولوا في البنيان»[1] ؛ حرصًا منه على بقاء بساطة المجتمع الإسلامي الأول، ومنع ظهور مظاهر الترف التي قد تؤثر في طبيعة الحياة العسكرية والاجتماعية للمسلمين.

وتكشف هذه الرواية عن جانب مهم من سياسة عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إنشاء الأمصار الإسلامية؛ فقد لم يكن اختيار مواقع المدن وبناؤها أمرًا عفويًا، بل كان قائمًا على مراعاة الجوانب البيئية والعسكرية والاجتماعية، بحيث تحقق هذه المدن وظيفتها بوصفها مراكز للجند والإدارة، ثم تتطور لاحقًا إلى مراكز حضارية كبرى، كما حدث في الكوفة والبصرة[2].

لقد نزل المسلمون في الكوفة عند تأسيسها على سبع خطط قبلية، بأمر من الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إذ رُوعي في تنظيمها توزيع القبائل والجماعات التي شاركت في الفتوحات، بما ينسجم مع طبيعة المجتمع العربي القائم آنذاك على الروابط القبلية، فكانت من هذه الخطط كنانة وحلفاؤها من الأحابيش وغيرهم، وجديلة وهم بنو عمرو بن قيس عيلان، وقضاعة، والأزد، ومذحج، وغطفان، وتميم، وإياد.

---

(١) ابن كثير (البداية والنهاية : ٦٦/٧) .

(٢) البلاذري (فتوح البلدان : ٢٧٥) .

وكان عدد من نزل الكوفة مع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عند تمصيرها يبلغ نحو عشرين ألفًا؛ منهم اثنا عشر ألفًا من قبائل اليمن، وثمانية آلاف من قبائل نزار .ثم أخذت القبائل العربية الأخرى تتوافد إليها تباعًا، فيما عُرف في المصادر باسم الروادف، فازدادت أعداد السكان، وتغير التوازن القبلي داخل المدينة، حتى أصبحت هذه الروادف تنافس القبائل الأولى التي سبقت إلى النزول، بل غلبت في بعض الأحيان على أهل السابقة والرياسة، مما أدى إلى اضطراب بعض الأوضاع الاجتماعية والسياسية في الكوفة، ودفع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى رفع شكواه إلى الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

ويظهر من ذلك أن الكوفة، منذ نشأتها، لم تكن مجرد معسكر عسكري، بل كانت مجتمعًا قبليًا متنوعًا تشكل من جماعات عربية متعددة، وكان هذا التنوع مصدر قوة لها في اتساع قاعدة الجند والمشاركة في الفتوحات، لكنه أدى لاحقًا إلى ظهور بعض التنافسات القبلية التي أثرت في الحياة السياسية للمدينة.

ومن مظاهر سياسة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في إدارة المصر الجديد أنه لم يقصر الإقامة فيه على العرب وحدهم، بل سمح لبعض الجماعات غير العربية بالسكن في الكوفة، ولا سيما الديلم، وهم من الفرس الذين تخلفوا عن القتال في معركة القادسية، ثم مالوا إلى المسلمين وأسهموا معهم في أعمال الفتح، فدخل بعضهم في جند المسلمين. كما استقر فيها من عُرفوا في المصادر باسم

الحمراء، وهم جماعات من الموالي والأعاجم الذين شاركوا في الحياة العسكرية والاجتماعية للكوفة.

ويكشف هذا التنظيم عن طبيعة الكوفة بوصفها مدينة نشأت في ظل الفتح الإسلامي، ثم تحولت سريعًا إلى مجتمع متعدد العناصر، جمع بين القبائل العربية الوافدة والسكان المحليين والعناصر الأعجمية، مما جعلها لاحقًا واحدة من أكثر مدن العراق تأثيرًا في التاريخ السياسي والعلمي للحضارة الإسلامية(١).

الموصل :

فتح العرب الموصل صلحاً ، بقيادة عتبة بن فرقد السلمى سنة **١٦** هـ في أيام الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وقام المسلمون على إنمائها ، وأما سبب تسميتها بالموصل فقد قيل : لتوسطها بلدان الشرق الأدنى ؛ لأنها تَصِل بين الشام والجزيرة الفراتية من جهة، وبين العراق وفارس من جهة أخرى ، وكان يقوم في موضعها أيام الساسانيين ، مدينة يقال لها (بور أردشير) ، وقد بقيت الموصل من أهم المحطات للقوافل ، التي تنقل التجارة من الهند إلى بلدان المغرب وبالعكس ، كانت الموصل عند فتحها عبارة عن حصن يشتمل على

---

(١) ماسينيون ، خطط الكوفة ، ص ١٥ .

مدينة صغيرة فيها محله لليهود ، وأخرى للمجوس ، وبيع للنصارى حولها بيوت لهم[1].

كان الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أوائل من أدركوا الأهمية الاستراتيجية لموقع الموصل، فاتخذها مركزًا من مراكز الفتوحات الإسلامية في شمال العراق، وجعلها أحد الأمصار التي تستند إليها الدولة الإسلامية في تنظيم جيوشها وإدارة المناطق المفتوحة، ويذكر اليعقوبي أنها كانت من ضمن الأجناد التي نظمها عمر رضي الله عنه، إذ جعل لها مركزًا عسكريًا مستقلاً، وعيّن عليها ولاة يتولون شؤونها.

وكان أول من ولي أمرها عتبة بن فرقد السلمي، الذي عمل على تنظيم وجود العرب فيها وترتيب شؤونهم، ثم تولى ولايتها بعده عرفجة بن هرثمة البارقي سنة ٢٠هـ، حيث قام بمهمة تمصير المدينة بأمر من الخليفة عمر رضي الله عنه، فخطّ منازل العرب الفاتحين، وأنشأ دار الإمارة، وبنى المسجد الجامع، على غرار ما جرى في تخطيط مصري الكوفة والبصرة.

وقد عُرفت المدينة باسم الموصل لما اتصفت به من موقع جغرافي رابط بين جهات متعددة؛ فهي تصل بين نهري دجلة والفرات، كما تمثل حلقة وصل بين العراق وبلاد الشام، مما منحها أهمية عسكرية وتجارية كبيرة ، ولهذا أصبحت

---

(١) البلاذري (فتوح البلدان : ٢٧٦) ؛ كي لسيرنج (بلدان الخلافة : ١١٥) .

الموصل من الأمصار المهمة في الدولة الإسلامية، واستقبلت أعدادًا من المقاتلين والمهاجرين العرب، كما حدث في البصرة والكوفة، فتحولت تدريجيًا من قاعدة عسكرية إلى مركز حضاري واقتصادي بارز في شمال العراق[١].

وفي خلافة عثمان بن عفان (**٢٤ - ٣٥** هـ) نزلت القبائل العربية الموصل وسكنتها، وأول القبائل التي نزلتها هي الازد وطيء ، وكنده ، وعبد القيس، كما فتحت جيوشها أرمنية وأذربيجان [٢].

وتتابعت إليها القبائل في خلافة علي بن أبى طالب (**٣٥ – ٤٠**هـ) رضي الله عنه ، من الكوفة والبصرة هروباً من الفتن، فاتسعت الموصل كثيراً حتى غدت من القواعد المهمة في الإسلام، ولم ينقض عصر دور الخلفاء الراشدين إلا والموصل قد صارت من المدن المهمة في العراق[٣].

---

(١) اليعقوبي ، التاريخ : ١٧٧/٢ .

(٢) البلاذري ، (فتوح البلدان : ٣٢٤) .

(٣) ابن الأثير (الكامل : ٢٢٢/٣) .

الفصل الثاني

التعريف بأرض نجد

المبحث الأول
أرض نجد

أصل كلمة نجد :

قبل الوقوف على مدلول لفظ نجد في اصطلاح الجغرافيين أو المحدثين، لا بد من الرجوع إلى أصله اللغوي؛ إذ إن العرب كثيرًا ما أطلقت أسماء الأقاليم استنادًا إلى أوصافها الطبيعية، فكانت التسمية في الغالب معبرة عن طبيعة المكان أو أبرز خصائصه ، ومن هذا القبيل لفظ نجد، فإنه في أصل اللغة لا يدل على إقليم مخصوص، وإنما يدل على وصف جغرافي عام، وهو الارتفاع والعلو في مقابل الانخفاض.

قال ابن فارس :النون والجيم والدال أصلٌ صحيح يدل على ارتفاعٍ في الشيء، يقال: نَجَد المكانُ يَنْجُد نُجودًا إذا ارتفع، والنَّجْد: المكان المرتفع من الأرض، وهو خلاف الغور .«فجعل ابن فارس معنى الارتفاع هو الأصل الجامع لجميع مشتقات المادة، ثم تتفرع عنه سائر الاستعمالات اللغوية[1].

---

(١) مقاييس اللغة : ٣٥٧/٥ .

وقال الجوهري: « النجد: ما ارتفع من الأرض، والجمع نِجاد وأنجاد، وهو خلاف الغور»[1] ، فبين أن العرب لم تجعل النجد اسمًا لموضع بعينه، وإنما لكل أرض ارتفعت عما جاورها.

ومن أجمع ما قيل في ذلك ما ذكره ابن منظور في لسان العرب، إذ قال : النَّجْدُ: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور، وكل ما ارتفع من الأرض فقد نجد. والنجد من الأرض المكان المشرف، والجمع نجود وأنجاد ونجاد. وكل طريق مرتفع فهو نجد، ومنه قيل للطريق الواضح: نَجْد، قال الله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد : ١٠] أي: طريقي الخير والشر، وسُمِّيا نجدين لظهورهما ووضوحهما، ثم نقل عن أئمة اللغة قولهم :كل ما ارتفع من الأرض فهو نجد[2].

ويتضح من كلام ابن منظور أنه جمع أقوال أئمة اللغة قبله، وربط بين المعنى الحسي والمعنى المجازي؛ فالأصل هو الارتفاع الحسي للأرض، ثم استعملت العرب اللفظة في الطريق الواضح المرتفع، وفي كل أمر ظاهر بارز، ولذلك فسر كثير من المفسرين قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ۝١٠﴾ [البلد : ١٠] بالطريقين الواضحين.

---

(١) الصحاح : ٢/٥٤٨ .

(٢) لسان العرب : ٣/ ٤١٣ .

وقال الأزهري في تهذيب اللغة :النجد: المكان المرتفع، والغور: المنخفض، والعرب تسمي كل مرتفع نجدًا، وكل منخفض غورًا، وهذا النص يدل على أن العرب كانت تستعمل اللفظ استعمالًا وصفيًا عامًا قبل أن يستعمل عَلَمًا على إقليم معين [1].

وقال الزبيدي في تاج العروس بعد أن استوعب أقوال من سبقه :النجد: ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغور، وكل ما ارتفع فقد نجد، ومنه سمي إقليم نجد لارتفاعه، ثم ساق شواهد كثيرة من كلام العرب تدل على أن مناط التسمية هو الارتفاع لا الموقع الجغرافي المجرد[2].

وتؤكد كتب الأدب واللغة هذا الاستعمال، فقد ذكر أبو هلال العسكري أن العرب كانت تقابل بين النجد والغور في أشعارها وخطبها، وتجعل النجد رمزًا للعلو والظهور، والغور رمزًا للانخفاض. كما أكثر شعراء الجاهلية والإسلام من استعمال لفظ النجد للدلالة على المرتفعات، ومن ذلك قولهم :أنجد القوم إذا صاروا إلى نجد، وأغاروا إذا نزلوا إلى الغور، وهو استعمال يدل على أن الكلمة كانت وصفًا لطبيعة الأرض قبل أن تكون اسمًا لإقليم معين.

---

(١) تهذيب اللغة : مادة نجد .

(٢) تاج العروس : مادة نجد .

ومن خلال استقراء هذه النصوص اللغوية يتبين أن أئمة العربية يكادون يجمعون على أن لفظ نجد في أصل وضعه اللغوي ليس اسمًا خاصًا ببلد معين، وإنما هو وصف لكل أرض مرتفعة، يقابلها في الاصطلاح العربي الغور، وهو الأرض المنخفضة، ومن هنا فإن إطلاق اسم نجد على الإقليم المعروف في وسط الجزيرة العربية لم يكن تسمية اصطلاحية مجردة، وإنما كان تطبيقًا لهذا الأصل اللغوي؛ لأن ذلك الإقليم يمثل الهضبة المرتفعة التي تعلو تهامة وسائر الأراضي المنخفضة المحيطة بها، وهو ما يفسر اتفاق اللغويين والجغرافيين بعد ذلك على ربط اسم نجد بصفة الارتفاع قبل أي اعتبار آخر.

المبحث الثاني
نجد عند الجغرافيين

تباينت آراء الجغرافيين المسلمين المتقدمين في تحديد الحدود الجغرافية لإقليمي الحجاز ونجد، ويظهر هذا التباين بوضوح عند مقارنة أوصافهم وتقسيماتهم لجزيرة العرب، ويُعزى جانب كبير من هذا الاختلاف إلى تغيّر الحدود الإدارية التي قُسِّمت إليها الجزيرة العربية في مراحل تاريخية متقاربة؛ إذ لم تكن هذه الحدود ثابتة، بل خضعت لتعديلات متكررة تبعًا للمتغيرات السياسية والإدارية ، فقد استحدث المسلمون في العصور الإسلامية الأولى تقسيمات إدارية استجابت لمقتضيات إدارة الدولة وظروفها، ولم تكن هذه التقسيمات ملتزمة دائمًا بالحدود الجغرافية الطبيعية، الأمر الذي انعكس في مؤلفات الجغرافيين والمؤرخين الذين دوّنوا تلك التنظيمات الإدارية، فاختلطت لديهم الحدود الإدارية بالحدود الجغرافية[١].

ولأهمية تحديد مفهوم الحجاز ونجد عند الجغرافيين المسلمين، يجدر استعراض أبرز أقوالهم؛ إذ تكشف نصوصهم عن اختلاف في التصور أكثر منه

---

(١) صالح العلي (تحديد الحجاز عند المتقدمين – مجلة العرب ج١ لسنة ١٣٨٨) ص ٣ .

اختلافًا في أصل التقسيم ، فقد نقل الهمداني عن ابن الكلبي أن بلاد العرب تنقسم إلى خمسة أقاليم هي: تهامة، والحجاز، ونجد، والعروض، واليمن(١).

وبيّن أن جبل السراة الممتد من اليمن يشكل حاجزًا طبيعيًا يفصل بين الغور، وهو تهامة، من جهة الغرب، وبين نجد من جهة الشرق، ولذلك سُمِّي هذا الحاجز بالحجاز؛ لأنه يحجز بين الإقليمين، وبناءً على هذا التصور، فإن نجد تشمل جميع الأراضي الواقعة شرق السراة حتى حدود العراق، في حين يضم إقليم العروض اليمامة والبحرين.

كما نقلت المصادر عن المدائني تقسيمًا مماثلاً يجعل جزيرة العرب خمسة أقاليم: تهامة، ونجد، والحجاز، والعروض، واليمن ، وفسّر حدود هذه الأقاليم بأن تهامة تمثل الناحية الغربية المنخفضة، وأن نجد تمتد فيما بين الحجاز والعراق، بينما يقع الحجاز بين تهامة ونجد، وهو السلسلة الجبلية الممتدة من اليمن إلى أطراف بلاد الشام، وسُمِّي بهذا الاسم لأنه يحجز بين تهامة ونجد(٢).

أما العروض فتشمل إقليم اليمامة وما يتصل به حتى البحرين، وتُظهر هذه النصوص أن عدداً من أوائل الجغرافيين المسلمين كانوا ينظرون إلى الحجاز

---

(١) الهمداني (صفة جزيرة العرب : ص ٥٨) .

(٢) المصدر السابق : ص ٦٤ .

بوصفه نطاقًا جبليًا فاصلاً بين تهامة غربًا ونجد شرقًا، وهو تصور سيكون له أثر واضح في تحديد مدلول نجد في المصادر الإسلامية اللاحقة.

وتكشف نصوص الجغرافيين المسلمين عن تعدد التصورات المتعلقة بتقسيم جزيرة العرب وحدود أقاليمها، إذ لم يكن هناك اتفاق تام بينهم في تحديد نطاق الحجاز ونجد، بل اختلفت أوصافهم تبعًا لاختلاف مناهجهم ومصادرهم، وكذلك تبعًا لاختلاف الاعتبارات التي اعتمدوها في التقسيم، أكانت جغرافية أم إدارية أم مرتبطة بالمصطلحات القبلية(١).

فقد روى السمهودي عن الأصمعي أن جزيرة العرب تنقسم إلى أربعة أقسام: اليمن، ونجد، والحجاز، والغور، وهو تهامة، بينما نقل الحربي عن مالك ابن أنس تقسيمًا يقوم على الأقاليم والمراكز الحضارية الكبرى، فجعل جزيرة العرب: مكة، والمدينة، واليمامة، واليمن(٢).

أما الهمداني فقد وسّع مفهوم جزيرة العرب، فذكر أن أهل اليمن يقسمونها إلى يمن وشام؛ فجنوبيها اليمن، وشماليها الشام، وتدخل ضمن هذا التصور أقاليم متعددة تشمل نجد وتهامة والحجاز والسراة والعروض والعراق والشِّحر. ويظهر من هذا التقسيم اتساع مدلول جزيرة العرب عند بعض

---

(١) كحالة (جغرافية شبه جزيرة العرب : ص٤٠) .

(٢) البكري (معجم ما أستعجم : ١/٥) .

الجغرافيين، بحيث يتجاوز التقسيمات الإقليمية الضيقة إلى نطاق أوسع يشمل المناطق المتصلة بها.

ويذكر ابن حوقل تقسيمًا آخر، إذ يجعل من ديار العرب الحجاز الذي يضم مكة والمدينة واليمامة، ونجد الحجاز المتصل بأرض البحرين، إضافة إلى بادية العراق وبادية الشام وبادية الجزيرة واليمن. أما المقدسي فقد قسم جزيرة العرب إلى أربع كور رئيسة، فجعل أولها الحجاز، ثم اليمن، ثم عُمان، ثم هجر، وأضاف إليها عددًا من النواحي، منها الأحقاف والأشحار واليمامة وقرح[1].

كما نقل أبو الفداء عن ابن الأعرابي تحديدًا يقوم على الوصف المكاني الدقيق للحدود، فذكر أن ما كان بين العراق وبين وجرة وغَمْرة الطائف فهو نجد، وأن ما كان وراء وجرة إلى البحر فهو تهامة، وأن المنطقة الواقعة بين تهامة ونجد هي الحجاز.

وتُظهر هذه النصوص أن مفهوم نجد والحجاز لم يكن ثابتًا بحدود سياسية أو إدارية واحدة عند جميع الجغرافيين، وإنما كان يتشكل وفق الزاوية التي ينظر منها كل مؤلف؛ فبعضهم اعتمد التضاريس الطبيعية، فجعل جبال السراة الحد الفاصل بين الحجاز ونجد، وبعضهم اعتمد التقسيمات الإدارية أو المراكز العمرانية، ومع ذلك يبقى القاسم المشترك في غالب هذه الروايات أن نجد تُطلق

(١) صورة الأرض: ١٩.

على الأراضي الواقعة في الجهة الشرقية من الحجاز، وأنها إقليم مستقل يختلف عن العراق وإن اتصل به من جهة الحدود.

وأما تحديد نجد واليمامة فقد شهد هو الآخر اختلافًا بين الجغرافيين؛ فنقل الأصفهاني عن عمارة بن عقيل أن ما انحدر من ذات عرق باتجاه المشرق فهو نجد حتى ينتهي إلى العراق، ونقل ابن قتيبة عن الأصمعي قوله: « إذا خلفت الحجاز مصعدًا فقد أنجدت»[1] ، أي دخلت في نجد، ولا تزال فيها حتى تنحدر في ثنايا ذات عرق.

ويذكر ياقوت الحموي وأبو الفداء أن تحديد نجد المشهورة وقع فيه خلاف، إلا أن أكثر الأقوال تجعلها اسمًا للأرض المرتفعة الواقعة بين تهامة واليمن من جهة، وبين العراق والشام من جهة أخرى، وأن بدايتها تكون من ناحية الحجاز[2].

وتكشف هذه النصوص مجتمعة عن أن مفهوم نجد والحجاز عند الجغرافيين المسلمين لم يكن قائمًا على حدود إدارية ثابتة، وإنما كان مرتبطًا بالخصائص الطبيعية للأرض، ولا سيما الارتفاع والانخفاض، وسلاسل الجبال، ومجاري المياه، والطرق التجارية ، ومع اختلاف التفاصيل، فإن غالب الأقوال تجمع على

---

(١) ابن قتيبة (المعارف :ص ٥٦٧) .

(٢) ياقوت الحموي : (المشترك وضعاً : ٤١٥) .

أن الحجاز يمثل منطقة فاصلة بين تهامة ونجد، وأن نجد تقع في الجهة الشرقية المرتفعة من الحجاز وتمتد باتجاه العراق والشام[1].

وكما اختلف الجغرافيون المسلمون في تحديد حدود الحجاز ونجد، فقد اختلفوا كذلك في تحديد موقع اليمامة وعلاقتها بالأقاليم المجاورة لها؛ فذهب بعضهم إلى أنها من أعمال الحجاز، ورأى آخرون أنها جزء من نجد، بينما عدّها فريق ثالث إقليمًا مستقلاً له كيانه الإداري والجغرافي الخاص.

فقد ذكر ياقوت الحموي أن اليمامة تُعد من نجد، وأن قاعدتها مدينة حجر، وتُسمى أيضًا جوًّا والعروض ، ونقل ابن الفقيه المعنى نفسه بقوله: (اليمامة صُرّة نجد، ومدينة نجد حجر)، مما يدل على ارتباطها الوثيق بإقليم نجد في نظر بعض الجغرافيين. في المقابل، ذهب القلقشندي إلى أن اليمامة من الحجاز، ونقل عن البيهقي أن اليمامة كانت (مُلكًا منقطعًا بعمله)، أي أنها كانت تتمتع بقدر من الاستقلال الإداري، أما البكري فقد ذهب إلى رأي مغاير، إذ قرر أن نجدًا كلها من عمل اليمامة، فجعل اليمامة مركزًا إداريًا يندرج تحته إقليم نجد[2].

---

(١) عبد الله السيف (الحياة الاقتصادية والاجتماعية في نجد والحجاز في العصر الأموي : ص٣٥) .

(٢) الأصفهاني (بلاد العرب : ٣٢٥) .

وبعد النظر في اختلاف أقوال الجغرافيين في تحديد إقليم نجد، يمكن اعتماد ما ذهب إليه ياقوت الحموي وأبو الفداء بوصفه الأقرب إلى التحديد الجغرافي؛ إذ أطلقا اسم نجد على الأرض المرتفعة التي تفصل بين تهامة واليمن من جهة، وبين العراق والشام من جهة أخرى ، ويتميز هذا التعريف بأنه يقوم على أساس طبيعي مرتبط بتضاريس المنطقة، لا على التقسيمات الإدارية التي كانت عرضة للتغير عبر العصور.

ويتوافق هذا التصور مع التحديد الجغرافي الحديث لإقليم نجد، الذي يجعله ممتدًا بين النفود الكبير شمالًا، المعروف قديمًا باسم رملة عالج، وبين الربع الخالي جنوبًا، المعروف قديمًا باسم رملة يبرين، في حين تحده الدهناء من الشرق، وجبال السروات من الغرب ، ووفق هذا التحديد، فإن نطاق نجد يقع تقريبًا بين خطي عرض ٢٠° و٢٨° شمالًا، ويشمل الهضبة المعروفة بهضبة نجد في الاصطلاح الجغرافي الحديث[١].

وبناءً على هذا المفهوم الجغرافي لنجد، يمكن إدراج إقليم اليمامة ضمن نطاقها الطبيعي، وعدّها أحد أقاليم نجد، بدلًا من اعتماد الحدود الإدارية القديمة التي كانت متغيرة وغير مستقرة. فقد ارتبط تحديد اليمامة إداريًا بظروف

---

(١) عبد الله السيف (مصدر سابق : ص ٣٧) .

سياسية مختلفة، إذ كانت تتبع أحيانًا لبعض الولايات وتستقل أحيانًا أخرى، مما أدى إلى اختلاف مساحتها وحدودها تبعًا لقوة السلطة القائمة أو ضعفها.

ويؤكد ذلك ما أورده بعض مؤرخي نجد من أن القدماء كانوا يقسمون نجد إلى أربعة أقسام، وأن ما كان من منطقة القصيم وما يقع جنوبها كان يُنسب إلى اليمامة، مما يدل على أن اليمامة كانت تمثل قسمًا من أقسام نجد، مع احتفاظها بخصوصيتها التاريخية والحضارية.

المبحث الثالث
نجد عند المحدثين

لا يختلف تحديد نجد عند المحدثين اختلافًا كبيرًا عن تحديدها عند الجغرافيين المسلمين، بل يظهر من خلال استقراء أقوال الفريقين وجود قدرٍ كبير من الاتفاق في أصل مفهومها وحدودها العامة؛ إذ انطلق الجغرافيون من الوصف الطبيعي للأرض، فقرروا أن نجدًا هي الأرض المرتفعة الواقعة شرق الحجاز وغرب العراق، في حين تناول المحدثون هذا المفهوم عند شرح الأحاديث النبوية، ولا سيما الأحاديث الواردة في فضائل الشام واليمن، وأحاديث الفتن، ففسروا لفظ (نجد) على ضوء الاستعمال العربي المعروف، مع مراعاة موقع المدينة النبوية التي خوطب أهلها بهذه النصوص.

ولذلك فإن المحدثين لم يبتدعوا تحديدًا جغرافيًا جديدًا لنجد، وإنما استندوا إلى ما كان مستقرًا في اللسان العربي والمعرفة الجغرافية في عصرهم، فقرروا أن النجد هو كل ما ارتفع من الأرض، وأن المراد في الأحاديث هو المرتفع الواقع شرق المدينة، وهو التحديد نفسه الذي نجده عند عدد من أئمة الجغرافيا الإسلامية، مثل ياقوت الحموي وأبي الفداء، اللذين جعلا نجدًا الإقليم المرتفع الممتد بين الحجاز والعراق.

ومن هنا يظهر أن تفسير المحدثين للفظ نجد لم يكن منفصلاً عن التصور الجغرافي السائد، وإنما كان منسجمًا معه في الجملة، وإن اختلفت عباراتهم بحسب المقصود من الشرح؛ فالجغرافي يصف الإقليم وحدوده، أما المحدث فيبين المراد من اللفظ الوارد في الحديث.

ويُعد الإمام أبو سليمان الخطابي (ت٣٨٨هـ) من أوائل شُرّاح الحديث الذين تعرضوا لبيان المراد بلفظ نجد الوارد في حديث ابن عمر رضي الله عنهما، البخاري حديث ابن عمر رضي الله عنهما بلفظ : « **اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»** ، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ قال: **« اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا»** ، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟ **قال: « هناك الزلازل والفتن، وبها**. أو قال: منها. **يطلع قرن الشيطان** »[١] .

وقد جمع في تفسيره بين الدلالة اللغوية للفظ، والاعتبار الجغرافي المتعلق بموقع المدينة النبوية، فكان شرحه أصلاً اعتمد عليه كثير من الشراح بعده.

قال الخطابي عند شرحه الحديث: « نجدٌ من ناحية المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده باديةَ العراق ونواحيها، وأصل النجد ما ارتفع من الأرض، وهو

---

(١) البخاري (١٠٣٧) .

خلاف الغور؛ فإن الغور ما انخفض منها، وتهامة كلها من الغور، ومكة من تهامة»[1] .

ويظهر من هذا النص أن الخطابي قرر ثلاث حقائق مترابطة:

أولها: أن أصل لفظ نجد أصلٌ لغوي، لا يختص بإقليم معين، وإنما يطلق على كل أرض مرتفعة، وهو ما يوافق ما قرره أئمة اللغة، كابن فارس، والجوهري، وابن منظور، والأزهري، في أن النجد ضد الغور، وأن مناط التسمية هو الارتفاع.

وثانيها: أن تحديد الجهات في الحديث نسبي، فيرتبط بالمكان الذي صدر منه الخطاب النبوي، وهو المدينة المنورة؛ ولذلك قال : « ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها» ، فليس مراده أن اسم نجد مرادف لاسم العراق، وإنما أن الجهة المرتفعة الواقعة شرق المدينة تمتد إلى بادية العراق وما جاورها، وهو تفسير مبني على الموقع الجغرافي للمدينة بالنسبة لما يحيط بها.

وثالثها: أن الخطابي حرص على بيان المقابلة الجغرافية بين نجد وتهامة، فذكر أن تهامة من الغور؛ لأنها منخفضة، بينما نجد هي الأرض المرتفعة. وهذه المقابلة كانت من أشهر التقسيمات الجغرافية عند العرب، وتؤكد أن استعمال لفظ نجد عنده جاء موافقًا لأصله اللغوي والجغرافي معًا.

---

(١) أعلام الحديث في شرح صحيح البخاري : ٣/ ١٨٩٠ .

ومن ثم فإن كلام الخطابي لا يخرج عن التصور الجغرافي الذي قرره أئمة البلدان، بل يتفق معهم في أن نجد وصف للأرض المرتفعة، ويختلف عن بعض القراءات المتأخرة التي جعلت العراق هو المراد الحصري باسم نجد؛ لأن الخطابي لم يقل : « نجد هي العراق » ، وإنما قال : « من كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها»، وهي عبارة تدل على بيان الجهة بالنسبة لأهل المدينة، لا على إعادة تعريف الإقليم الجغرافي المعروف باسم نجد.

وقد حظي تفسير الخطابي بقبولٍ واسع عند شُرَّاح الحديث من بعده، حتى أصبح من أبرز الأقوال المعتمدة في شرح حديث : « **اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا...** » ، وذلك لما امتاز به من الجمع بين الدلالة اللغوية للفظ نجد وبين الاعتبار الجغرافي المتعلق بموقع المدينة النبوية.

فقد سار القاضي عياض (ت **٥٤٤**هـ) على المعنى الذي قرره الخطابي، مبينًا أن المراد بالنجد في الحديث الجهة الشرقية بالنسبة إلى المدينة، وأن النجد في أصل اللغة هو ما ارتفع من الأرض، وأن العراق وما وراءها إنما ذكرت لكونها واقعة في تلك الجهة، لا لأنها المراد الحصري باسم نجد(١).

ثم جاء الإمام النووي (ت **٦٧٦**هـ)، فنقل هذا التفسير وأوجزه بقوله :«نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهو

---

(١) إكمال المعلم : ٧/٢٥١ .

مشرق أهل المدينة» ، فجعل مناط التفسير هو اختلاف الجهات باختلاف موقع المخاطبين، وهو تقرير يكاد يوافق عبارة الخطابي في ألفاظها ومعانيها[1].

واعتمد الحافظ ابن حجر العسقلاني (ت **٨٥٢**هـ) هذا التفسير في فتح الباري، فقال: « نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة، وأصل النجد ما ارتفع من الأرض، وهو خلاف الغو، ويلاحظ أن ابن حجر جمع بين بيان الأصل اللغوي للفظ وبين تطبيقه الجغرافي، وهو المنهج نفسه الذي سلكه الخطابي[2].

وسار بدر الدين العيني (ت **٨٥٥**هـ) في عمدة القاري على هذا النهج، فنقل معنى كلام الخطابي وابن حجر، مؤكدًا أن المراد بالنجد جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة، وأن أصل النجد هو الأرض المرتفعة، وأن العراق ذكرت باعتبار وقوعها في تلك الجهة[3].

---

(١) شرح صحيح مسلم : ٢٩/٢ .

(٢) فتح الباري : ٥٨/١٣ .

(٣) عمدة القاري : ٢٠٠/٢٤ .

وكذلك فعل القسطلاني (ت **٩٢٣هـ**) في إرشاد الساري، إذ نقل كلام من تقدمه من الشراح، وقرر أن النجد بالنسبة إلى أهل المدينة هو ما ارتفع من جهة المشرق، مع التنبيه إلى أصل اللفظ في اللغة[١].

ووافق الملا علي القاري (ت **١٠١٤هـ**) من سبقه من شُرّاح الحديث، فقرر أن نجدًا هي جهة المشرق بالنسبة إلى المدينة، وأن بادية العراق ونواحيها داخلة في هذه الجهة، لا أنها هي نجد بإطلاق، مؤكدًا أن أصل النجد في اللغة هو ما ارتفع من الأرض، وهو ضد الغور[٢].

ويؤيد هذا الفهم ما ثبت عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تحديد المواقيت؛ فإنه لم يجعل ميقات أهل العراق هو ميقات أهل نجد، بل فرّق بينهما، مما يدل على أن العراق لم يكن عنده هو الإقليم المسمى نجد، وإن كانت تقع في الجهة الشرقية بالنسبة إلى المدينة.

فقد ثبت في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «لما فُتح هذان المِصران أتوا عمر فقالوا: يا أمير المؤمنين، إن رسول الله ﷺ حدَّ لأهل

---

(١) إرشاد الساري: ١٠/٢٣٨.

(٢) مرقاة المفاتيح: ١/٨٥.

نجد قرنًا، وإنه جورٌ عن طريقنا، وإنا إن أردنا قرنًا شقَّ علينا، قال: فانظروا حَذْوَها من طريقكم، فحدَّ لهم ذاتَ عِرق »[1].

ويستفاد من هذا الأثر أن أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه اعتبر قرن المنازل ميقاتًا مستقلاً لأهل نجد، بينما جعل ذات عرق ميقاتًا خاصًا بأهل العراق بعد فتحها، ولو كان العراق هو المراد باسم نجد لما احتيج إلى إنشاء ميقات جديد، ولكان أهل العراق داخلين ابتداءً في ميقات أهل نجد، وهذا يدل دلالة ظاهرة على أن الصحابة كانوا يميزون بين إقليم نجد وبين العراق، وإن كانت العراق تقع شرق المدينة.

(١) البخاري (١٥٣١).

المبحث الرابع
نجد عند المؤرخين

يعد مصطلح (نجد) من المصطلحات الجغرافية التي اكتسبت دلالات إدارية وسياسية عميقة في التراث العربي والإسلامي، متجاوزاً حدود الوصف اللغوي ليتحول إلى ركيزة أساسية في التنظيم الإداري للدولة. وعلى خلاف ما قد يُشاع أحياناً من تداخل أو ترادف في المسميات، تكشف المصادر التاريخية والوثائق الرسمية عبر العصور عن استقرار هذا الاسم بوصفه إقليماً مستقلاً، يمتلك خصائصه الجغرافية وحدوده الإدارية المميزة التي تفصله بوضوح عن الأقاليم المجاورة كالحجاز والعراق والبحرين.

لقد تجلى هذا الحضور في العصرين الأموي والعباسي بوصفه هوية جغرافية راسخة، حيث لم يقتصر استعمال اسم نجد على كتب اللغة والأنواء، بل انتقل ليصبح ركيزة في المراسلات الإدارية والأخبار التاريخية، ففي العصر الأموي، برز نجد كإقليم متميز في سياق رصد حركات الخوارج وتتبع مسالك الحج، حيث كان يُشار إليه ككيان جغرافي مستقل عن ولايات الأمصار الكبرى، ومع بزوغ العصر العباسي، اتخذ هذا المصطلح طابعاً توثيقياً في مصنفات المسالك والممالك التي مثلت انعكاساً دقيقاً للتقسيمات الإدارية للدولة؛ فقدم ابن

خرداذبه في كتابه (المسالك والممالك) وصفاً لنجد كإقليم قائم بذاته، وسار على نهجه اليعقوبي في كتابه (البلدان) الذي أدرج نجد ضمن الأقاليم الجغرافية بحدود معروفة، كما أكد قدامة بن جعفر في "كتاب الخراج وصناعة الكتابة" هذا التميز بوضوح، حيث قدم تقسيماً إدارياً صريحاً يضع نجد في مقابل العراق والحجاز والبحرين بشكل لا يقبل التأويل.

وامتداداً لهذا المسار التاريخي، شهد العصر العثماني تكريساً قانونياً وإدارياً لمصطلح نجد، حيث وردت في الوثائق الرسمية والمراسلات السلطانية تسميات تعكس كيانية هذا الإقليم واستقلاليته ، فقد حفلت (دفاتر المهمة) بمصطلحات دقيقة مثل (بلاد نجد) بوصفها توصيفاً جغرافياً إدارياً لإقليم كامل، و(أمير نجد) للإشارة إلى القيادة الإدارية داخل الإقليم، و(أهل نجد) لتحديد الهوية الاجتماعية للإقليم في المخاطبات الرسمية. وقد أظهرت الوثائق المتعلقة بحملة محمد علي باشا على الدولة السعودية الأولى تمييزاً دقيقاً بين (بلاد نجد) كوجهة للحملة، وبين ولايتي بغداد والبصرة، مما يقطع بأن الإدارة العثمانية كانت تتعامل مع نجد كمنطقة تقع خارج نطاق الإدارة المباشرة للعراق، وهو ما يعزز الحقيقة التاريخية بأن اسم نجد ظل دالاً على الإقليم الواقع في قلب الجزيرة العربية[1].

---

(١) عبد الرحيم عبد الرحمن (وثائق أقليم نجد : ص٨٠٧) .

إن هذا الامتداد التاريخي، من العصر الأموي مروراً بالعباسي وانتهاءً بالعثماني، يكشف عن حقيقتين لا تقبلان الجدل؛ الأولى هي استقرار المصطلح كركيزة إدارية متجذرة في العقلية السياسية للدول الإسلامية، والثانية هي الاستقلالية التامة للإقليم، حيث لم يكن نجد يوماً مرادفاً للعراق في الخطاب الرسمي، بل كان يُنظر لكل منهما ككيان جغرافي له إدارته ومساراته الخاصة، وخلاصة القول، إن تتبع هذا المصطلح عبر العصور يبرهن على حقيقة جغرافية وسياسية ثابتة، ويؤكد أن حضور نجد في دفاتر الدولة ومصنفات المؤرخين يغلق الباب أمام أي محاولات لتأويل هذا المصطلح خارج سياقه التاريخي أو الجغرافي الصحيح.

وأخيراً فقد أدرك المؤرخون النجديون المتأخرون أن تدوين تاريخ إقليم نجد يمثل ضرورة وجودية لترسيخ هوية هذا الإقليم ككيان فاعل ومستقل، وقد تصدّر هذه الحركة نخبة من العلماء الذين أرخوا لهذه الحقبة بوعي تاريخي عميق، وفي مقدمتهم الشيخ حسين بن غنام (ت ١٢٢٥هـ) صاحب كتاب (روضة الأفكار والأفهام لمرتاد حال الإمام وتعداد غزوات ذوي الإسلام)، والشيخ عثمان بن بشر النجدي الحنبلي (ت ١٢٩٠هـ) الذي خلّد تاريخ المنطقة في كتابه الشهير (عنوان المجد في تاريخ نجد)، إلى جانب الشيخ محمد بن عمر الفاخري (ت ١٢٧٧هـ) في مؤلفه (تاريخ نجد)، والشيخ إبراهيم بن صالح بن

عيسى (ت ١٣٤٣هـ) صاحب السجل التوثيقي الحافل (تاريخ بعض الحوادث في نجد).

إن اختيارهم لعناوين صريحة لم يكن مجرد موافقة أدبية، بل كان تعبيراً عن رؤية منهجية تهدف إلى انتزاع نجد من التهميش التاريخي، وإثبات أنها ليست مجرد مساحة قفراء أو هامش تابع للأقاليم الكبرى، بل هي مركز إشعاع حضاري وسياسي، وقد استهدفت هذه التسميات تثبيت الهوية الإقليمية لنجد، حيث سعى هؤلاء العلماء إلى تدوين تاريخها ككيان متميز يمتلك تاريخاً خاصاً يضاهي المدونات التي ركزت قديماً على العراق والشام ومصر. كما ارتبط (المجد) في هذه المدونات، لا سيما في مؤلفات ابن بشر، بالنجاح السياسي والروحي للدولة السعودية الأولى والدعوة الإصلاحية، حيث جرى تصوير هذا العصر بوصفه عصراً ذهبياً استثنائياً ، ومن خلال هذه الكتابات، مارس المؤرخون عملية (استرداد للتاريخ) من خلال تسجيل أخبار القبائل، والوقائع اليومية، والغزوات، والتحالفات المحلية، مما صاغ ذاكرة جمعية لأبناء نجد جعلت من إقليمهم محوراً لحدث تاريخي إسلامي كبير يستحق أن يُفرد له تاريخ مستقل.

وفي سياق تعاملهم مع الأقاليم المجاورة، لا سيما العراق، لم يخلط هؤلاء المؤرخون يوماً بين كيان نجد وكيان العراق ، بل على العكس، اتسمت كتاباتهم بوعي جغرافي وإداري دقيق يرسخ التمايز بين الإقليمين؛ ففي نصوصهم، يُشار

إلى العراق (بمدنه كبغداد والبصرة) ككيان منفصل تماماً، وعنصر آخر مغاير لنجد في هياكله السياسية والعثمانية ، لقد كان المؤرخون النجدين يكتبون تاريخهم من منظور (نجدي) داخلي يجعل نجد هي المركز، بينما يُنظر للأقاليم الأخرى كجهات خارجية تربطها بنجد علاقات سياسية أو هجرات علمية وتجارية.

إن هذا التمييز كان متعمداً وضرورياً لترسيخ (استقلال الهوية) في مقابل القوى الإقليمية المجاورة؛ إذ كان التمايز المذهبي والاجتماعي والسياسي يفرض عليهم تدوين حدود إقليمهم في كتبهم، ليقطع الطريق أمام أي تبعية إدارية مفترضة. وبذلك، جاءت هذه المدونات بمثابة الإعلان التاريخي عن (شخصية إقليمية مكتملة)، حيث أثبتت أن نجد إقليم يمتلك كيانه الخاص ومساره التاريخي الذي لا يمت بصلة إدارية للعراق، مؤكدة في النهاية أن كتاباتهم لم تكن إلا صوناً لهذا الكيان ضد أي محاولات لتأويله خارج سياقه التاريخي أو الجغرافي المستقل.

وأخيرًا، فإن مما يعزز ما انتهى إليه الجغرافيون المسلمون، ويؤكد استقرار مفهوم نجد في الدراسات الجغرافية والتاريخية، اتفاقُ عدد من المؤرخين والباحثين المعاصرين الذين أعادوا رسم خرائط شبه الجزيرة العربية اعتمادًا على المصادر الإسلامية المبكرة والحقائق الجغرافية، على أن إقليم نجد هو الإقليم نفسه الذي وصفه الجغرافيون المتقدمون وحددوا معالمه. فقد جاءت الخرائط

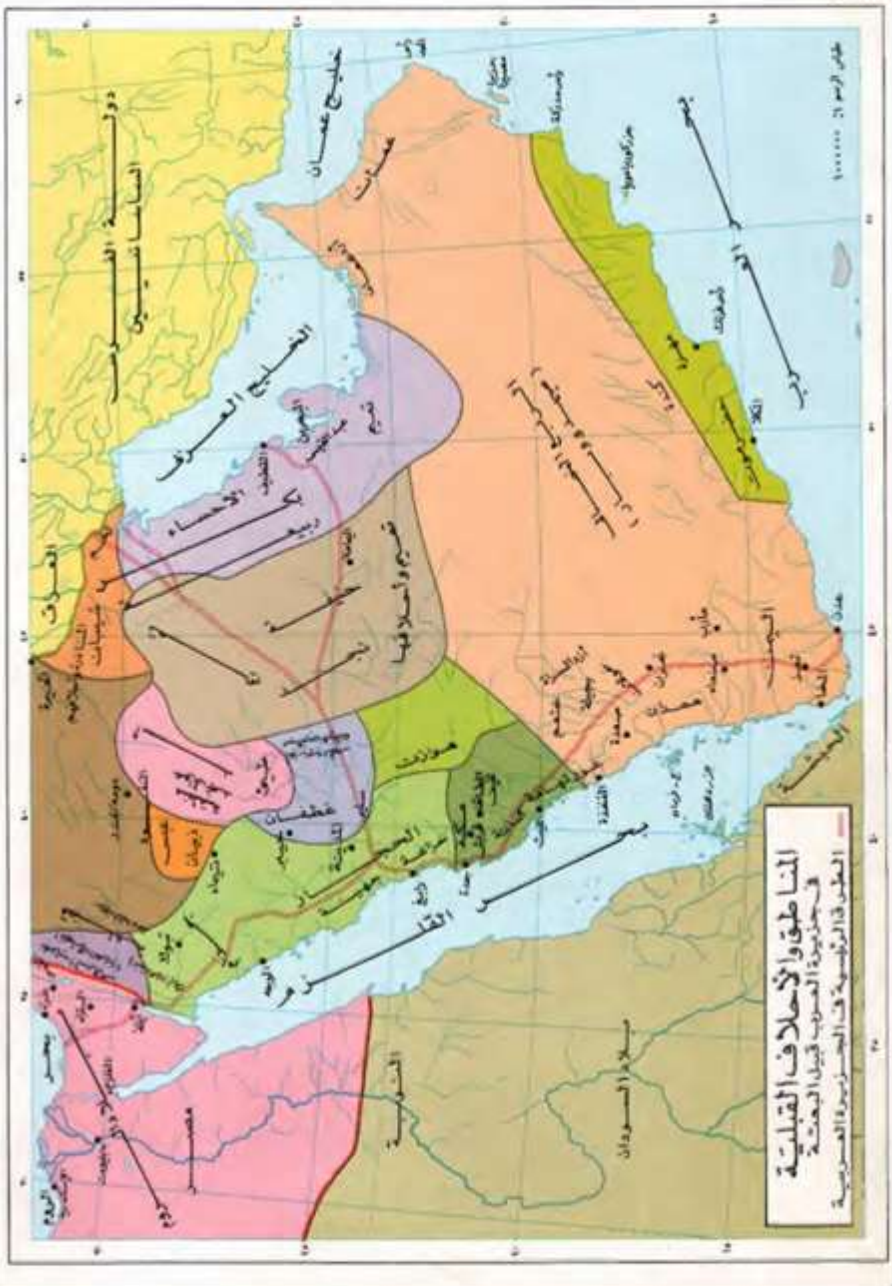
المنشورة في مؤلفات الدكتور حسين مؤنس، والدكتور شوقي أبو خليل، والدكتور رفعت محمود عثمان، والدكتور عبد الله بن محمد السيف، وغيرهم، متوافقة في الجملة مع ما قرره أصحاب كتب البلدان والمسالك من أمثال الهمداني، وابن خرداذبه، والإصطخري، وابن حوقل، والمقدسي، وياقوت الحموي، وأبي الفداء، إذ جعلت نجدًا الهضبة الوسطى من جزيرة العرب، الواقعة شرق الحجاز وغرب العراق، والممتدة ضمن حدودها الطبيعية المعروفة، دون أن تخلط بينها وبين إقليم العراق أو تجعل الاسمين مترادفين.

وتكتسب هذه الخرائط أهميتها العلمية من كونها لم تُنشأ اعتمادًا على اجتهادات شخصية، وإنما بُنيت على قراءة نقدية للمصادر الجغرافية والتاريخية الإسلامية، مع الإفادة من معطيات الجغرافيا الطبيعية والخرائط الحديثة، الأمر الذي يجعلها شاهدًا علميًا على استمرار المفهوم الجغرافي لنجد عبر العصور. ومن ثم فإن الاتفاق بين الجغرافيين المسلمين المتقدمين، وشُرّاح الحديث، والوثائق الإدارية في العصور الإسلامية، والدراسات الجغرافية المعاصرة، يكشف عن وجود تصور جغرافي مستقر لإقليم نجد، لم يطرأ عليه تغير جوهري في تحديده، وإنما بقي يدل على الإقليم المعروف في قلب الجزيرة العربية.

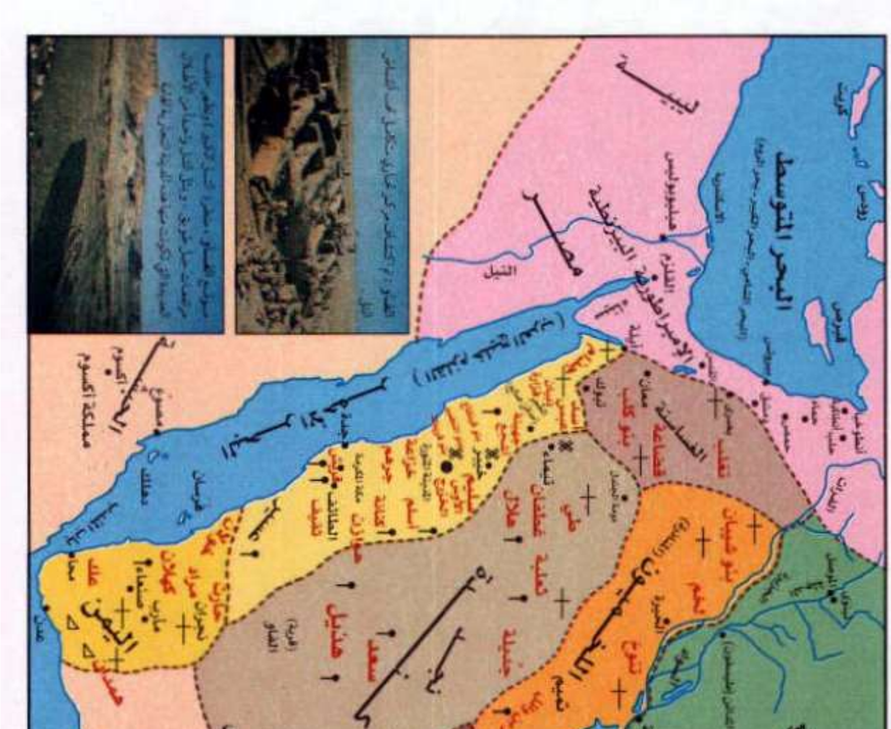
وهذا الاتفاق الممتد عبر أكثر من ألف عام يضعف كثيرًا من التفسيرات الطارئة التي ذهبت إلى نقل مدلول اسم نجد إلى العراق، إذ لو كان هذا الفهم

معروفًا أو مستقرًا عند المتقدمين لظهر في مصنفاتهم الجغرافية، وخرائطهم، ووثائقهم الإدارية، وهو ما لا تشهد به المصادر، بل تدل في مجموعها على خلافه.

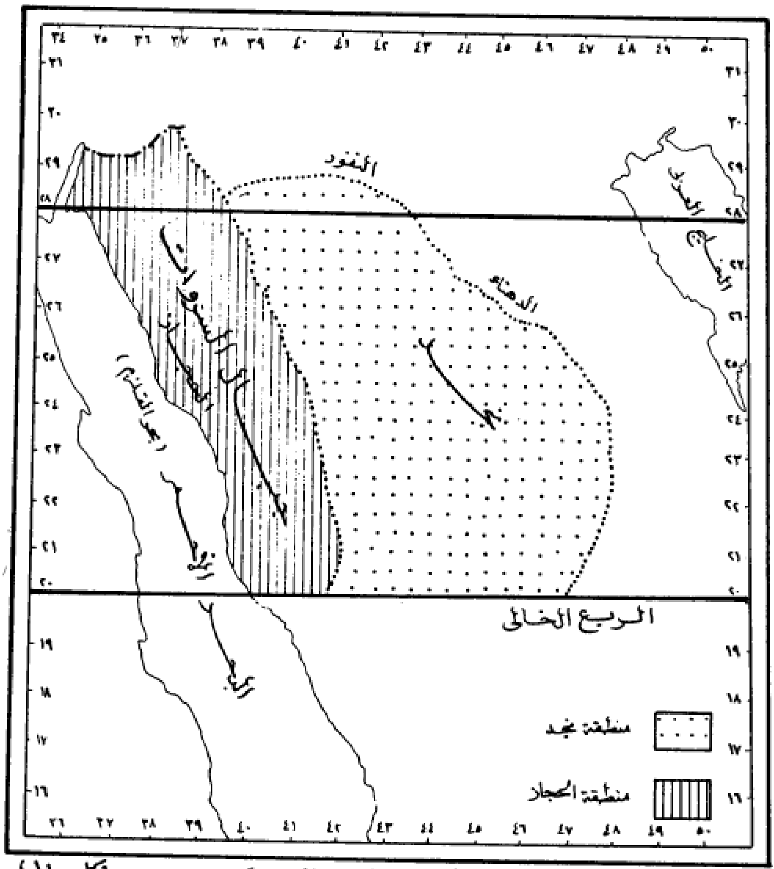
١. خريطة نجد : حسين مؤنس (أطلس التاريخ الإسلامي رقم ٤٩) .



٢. خريطة نجد : شوقي أبو خليل (أطلس السيرة النبوية)



٣. خريطة نجد : د. عبد الله محمد السيف



شكل (١) موقع نجد والحجاز من الجزيرة العربية

٤. خريطة حديثة لموقع نجد من أرشيف (المملكة العربية السعودية)



الفصل الثالث

الأصول المكانية للخوارج

المبحث الأول
الأصول العقدية للخوارج

الخوارج : جمع خارجي، وهو اسم فاعل من الفعل خرج، وأصل مادته في اللغة يدل على الانفصال والمفارقة والظهور من الشيء.

قال ابن فارس : « الخاء والراء والجيم أصلان صحيحان، أحدهما يدل على مضيٍّ في الشيء، والآخر على خلاف الدخول، ومنه الخروج، وهو ضد الدخول»[1].

وقال ابن منظور: «خرج يخرج خروجًا: برز من مكانه، والخروج نقيض الدخول، والخارجي: الذي يخرج على الإمام، والجمع خوارج»[2] .

وقال الزبيدي: «والخوارج قوم من أهل الأهواء، سُمُّوا بذلك لخروجهم على الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه»[3].

---

(١) مقاييس اللغة : ٢/١٧٥ .

(٢) لسان العرب : مادة خرج .

(٣) تاج العروس : مادة خرج .

وعلى هذا فإن لفظ **الخوارج** في أصل اللغة لا يختص بفرقة معينة، وإنما يطلق على كل من خرج من مكانه أو فارق غيره، ثم غلب استعماله في الخارجين على الإمام.

أما من حيث الاصطلاح : فإن علماء العقيدة والفرق يطلقون : اسم **الخوارج** على الفرقة التي خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد قضية التحكيم في وقعة صفين، ثم جعلت التكفير بالذنب والخروج على أئمة المسلمين أصلًا من أصولها.

قال الأشعري: «وأول ما حدثت الخوارج حين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإنما سُموا خوارج لخروجهم عليه»(١).

وقال عبد القاهر البغدادي: «الخوارج هم الذين زعموا أن عليًا وعثمان وأصحاب الجمل والحكمين وكل من رضي بالتحكيم قد كفروا»(٢).

وقال الشهرستاني: «كل من خرج على الإمام الحق الذي اتفقت الجماعة عليه يسمى خارجيًا، سواء كان الخروج في أيام الصحابة على الأئمة الراشدين، أو كان بعدهم على التابعين بإحسان، والأئمة في كل زمان»(٣).

---

(١) مقالات الإسلاميين : ١/١٦٧.

(٢) الفرق بين الفرق : ٧٢.

(٣) الملل والنحل : ١/١١٤.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وأول بدعة حدثت في الإسلام بدعة الخوارج، وإنما ابتدعوا بدعتهم بسبب اعتقادهم الفاسد في القرآن، ولم يكن قصدهم اتباع الهوى، بل أرادوا اتباع القرآن، ولكن ضلوا عن فهمه»[1].

ومن خلال هذه التعريفات يتبين أن علماء الفرق والعقيدة ينظرون إلى الخوارج من جهتين:

جهة تاريخية، وهي أنهم أول فرقة خرجت على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد التحكيم، وجهة عقدية، وهي أنهم جعلوا تكفير المسلم بالذنب، واستحلال دماء مخالفيهم، والخروج على أئمة المسلمين من أصول مذهبهم، حتى صار اسم الخوارج علمًا على كل فرقة تبنت هذه الأصول، وإن اختلفت أسماؤها وفرقها.

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٣/ ٢٠ .

المبحث الثاني
الخوارج في عهد النبوة

لم تظهر فرقة الخوارج بصورتها العقدية والتنظيمية في حياة النبي ﷺ، وإنما ظهرت بوادر فكرها وأصولها الأولى في أواخر العهد النبوي، حين اعترض رجل من بني تميم على قسمة رسول الله ﷺ للغنائم، فكانت هذه الحادثة أول بذرة للفكر الخارجي، ثم تطورت بعد ذلك حتى صارت فرقة مستقلة في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد ثبت في الصحيحين عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: « بينما نحن عند رسول الله ﷺ وهو يقسم قسمًا، أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، اعدل ، فقال: **ويلك، ومن يعدل إذا لم أعدل؟! قد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل** ، فقال عمر بن الخطاب: يا رسول الله، ائذن لي فيه فأضرب عنقه ، فقال: **دعه؛ فإن له أصحابًا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم، وصيامه مع صيامهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية** »[1].

---

(١) البخاري (١٠٦٤).

ويُعدُّ ذو الخُوَيْصِرَة التميمي أول شخصية ظهر منها الاعتراض على مقام النبوة في باب الحكم والاجتهاد، ولذلك عدَّه كثير من علماء السنة أصلًا لبداية ظهور الخوارج من جهة المنهج والفكر، وإن لم تكن فرقة الخوارج قد تشكلت تنظيمًا إلا بعد ذلك في زمن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد اتفقت الروايات الصحيحة على أنه من بني تميم، وهي قبيلة مضرية كبيرة كانت منازلها الأصلية في نجد، وانتشرت بطون منها بعد الإسلام في مناطق متعددة، ومنها البصرة وخراسان وغيرها. ولذلك فإن نسبة النبي ﷺ له إلى بني تميم ذات دلالة تاريخية مهمة؛ إذ لم ينسبه إلى العراق، وإنما إلى قبيلته الأصلية.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : « فإن أولهم قال للنبي ﷺ في وجهه: اعدل يا محمد فإنك لم تعدل» ، ثم بيّن أن أصل انحراف الخوارج كان سوء فهمهم للنصوص، حيث جعلوا ما ليس بذنب ذنبًا، وما ليس بكفر كفرًا، فقال:

« ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بها جماعة المسلمين وأئمتهم: أحدهما خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة أو ما ليس بحسنة حسنة»(١)، ثم استدل بقصة ذي الخويصرة واعتراضه على النبي ﷺ .

---

(١) مجموع الفتاوى : ١٩/ ٧٢ .

ويرى ابن تيمية أن هذا الاعتراض يكشف أصل الداء الخارجي، وهو تقديم الرأي المجرد على النص والاعتراض على حكم الشريعة بحجة الغيرة على الدين.

كما ذكر الحافظ ابن حجر أن قصة ذي الخويصرة من علامات النبوة، لأن النبي ﷺ أخبر بظهور قوم يحملون صفاته، فقال: « وفيه أن أول الخوارج كان في زمن النبي ﷺ، وإنما ظهر أمرهم واشتهر في زمن علي رضي الله عنه » .

وكلام الحافظ هنا يثبت إن محاولة التفريق بين جذور الفكرة التي ظهرت في زمن النبي ﷺ وبين ظهور الجماعة المقاتلة في عهد علي رضي الله عنه هو طرح غير دقيق؛ فأساس الخوارج ومنبتهم الفكري واحد، وهذا يثبت أن الجماعة المقاتلة في عهد علي رضي الله عنه لم تكن نتاجاً لظروف سياسية طارئة، بل هي الامتداد الفعلي والتطبيق العملي لنفس تلك النواة الفكرية التي ظهرت بوادرها منذ العهد النبوي .

وقال النووي في شرح حديث الخوارج: « فيه بيان صفة الخوارج، وأنهم أهل عبادة واجتهاد، لكن مع جهل عظيم وضلال شديد»[1].

وقد اتفق أهل المقالات والملل والنحل، وعلى رأسهم ابن حزم والشهرستاني، على أن قصة ذي الخويصرة التميمي ليست مجرد واقعة عابرة، بل

---

(١) شرح صحيح مسلم : ١٦٠/٧ .

هي التأسيس الفعلي والأصل العقدي لفكر الخوارج ، فقد اعتبر ابن حزم أن اعتراض ذي الخويصرة على النبي ﷺ في قسمة الغنائم هو أول خروج في الإسلام؛ حيث جسّد هذا الموقف جوهر (الخوارجية) في التطاول على القيادة وتخطئتها، وهو المنطق الذي سحبوه لاحقاً على الصحابة وأئمة المسلمين، معتبرين أنفسهم أصحاب العدل والحق في مواجهة من خالفهم.

وعليه، يرى هؤلاء المؤرخون أن هذه الحادثة وضعت (الأساس) الفكري الذي استمدت منه الجماعات التي ظهرت لاحقاً مشروعيتها في الخروج؛ إذ إن ادعاء ذي الخويصرة بأنه أعلم بالعدل من النبي ﷺ قد رسّخ لدى أتباعه لاحقاً عقيدة (تخطئة الحاكم) بناءً على فهمهم الشخصي، وهذا يثبت أن الجماعة المقاتلة التي برزت في عهد علي رضي الله عنه لم تكن وليدة ظروف سياسية طارئة فحسب، بل هي الامتداد الفعلي والتطبيق العملي للنواة الفكرية التي ظهرت بوادرها منذ العهد النبوي.

لم تذكر كتب الحديث موطنًا محددًا لذي الخُوَيْصِرة التميمي من حيث البلدة أو الناحية، وإنما اكتفت ببيان نسبه القبلي، فقالت في الحديث الصحيح: « وهو رجل من بني تميم »، ولذلك فإن معرفة موطنه لا تكون من خلال ترجمة شخصية مستقلة له، وإنما من خلال دراسة مواطن بني تميم، القبيلة التي ينتسب إليها، وهي قبيلة كبيرة من قبائل مضر العدنانية.

وقد أجمع علماء النسب على أن بني تميم من القبائل المضرية العدنانية، وأن مواطنها القديمة كانت في قلب الجزيرة العربية، ولا سيما نجد، قبل الإسلام وفي صدر العصر الإسلامي، ثم تفرقت بطون منها بعد الفتوحات الإسلامية، فسكنت طوائف منهم العراق وخراسان وغيرها.

فهذا الهمداني – أوثق من بين ديار القبائل العربية قبل الإسلام – أنهم كانون يسكنون ما بين نجد واليمامة ، وهي من أشهر المواطن التي ارتبطت بقبائل تميم، وكان انتشارهم فيها سببًا في أن عُدَّت تميم من قبائل نجد الكبرى .

ومن أشهر المواضع التي ارتبطت ببني تميم :الدهناء، والصمّان، واليمامة، وهي جميعًا من المواضع الداخلة في نطاق نجد التاريخي.

فأما الدهناء فهي من أشهر صحارى العرب، وهي رمال عظيمة تمتد في وسط الجزيرة العربية، وكانت من مواطن قبائل مضر، ومنها بنو تميم ، وقد ذكر الهمداني الدهناء ضمن المواضع المعروفة في جزيرة العرب، وجعلها من معالم الطريق والبادية التي تتصل ببلاد نجد وشرق الجزيرة[1].

وأما الصمّان فهو موضع معروف في شرق نجد، وهو هضبة واسعة كانت من منازل القبائل العربية، واشتهرت بارتباطها ببني تميم، حتى صار اسمها

---

(١) صفة جزيرة العرب : ص١٢٨ .

ملازمًا في كتب البلدان لديارهم ، وقد ذكر ياقوت الحموي أن الصمّان من بلاد العرب المعروفة، ونقل ارتباطها ببني تميم(١).

ومن خلال استقراء ما ذكره الهمداني يتضح أن بني تميم لم تكن قبيلة وافدة على العراق في أصل نشأتها، وإنما كانت من القبائل العربية الكبرى التي استقرت في نجد وشرق الجزيرة العربية قبل الإسلام، ثم انتقلت جماعات منها إلى العراق بعد الفتح الإسلامي، شأنها شأن كثير من قبائل العرب التي توسعت مساكنها بعد قيام الدولة الإسلامية.

وهذا مهم عند دراسة شخصية ذي الخويصرة التميمي؛ لأن الحديث النبوي حين نسبه إلى بني تميم كان ينسبه إلى قبيلة ذات موطن معروف في الجزيرة العربية، لا إلى العراق ، فالعراق لم يكن الموطن الأصلي لبني تميم، وإنما أصبح لاحقًا موطنًا لبعض بطونها بعد الفتوحات، بينما بقي الأصل الجغرافي للقبيلة مرتبطًا بنجد وما جاورها.

فإن أول شخصية ارتبطت بالخوارج في السنة النبوية من جهة ظهور سماتهم الفكرية ومنهجهم في الاعتراض على الأئمة هي ذو الخويصرة التميمي، وقد نص الحديث الصحيح على أنه (رجل من بني تميم) ، وبنو تميم من أكبر القبائل العربية المضرية، وكانت ديارها الأصلية في نجد وما جاورها قبل الإسلام، كما

---

(١) معجم البلدان : ٤٢٣/٣ .

أثبتت ذلك كتب الأنساب والجغرافيا، وفي مقدمتها مؤلفات الهمداني وياقوت الحموي وغيرهما. وهذا يكشف أن البذرة الأولى للفكر الخارجي ارتبطت بقبيلة ذات جذور نجدية، لا بقبائل العراق.

وليس ذو الخويصرة حالة منفردة في تاريخ الخوارج؛ إذ إن المتتبع لسير أبرز قادتهم ورؤوسهم يجد أن عددًا كبيرًا منهم يرجع إلى قبائل كانت مواطنها الأصلية في نجد وما حولها، بل إن غالب الأسماء البارزة في تاريخ الخوارج تنتمي إلى بيئات قبلية نجدية، كما سيأتي تفصيله عند الحديث عن قادتهم وفرقهم وأصولهم القبلية ، وهذا لا يعني أن الحركة الخارجية السياسية لم تتخذ العراق لاحقًا مركزًا لها، وإنما يدل على ضرورة التفريق بين الموطن القبلي والجذور الأولى للأشخاص وبين المكان الذي ظهرت فيه الحركة كتنظيم عسكري وسياسي.

المبحث الثالث
الأعراب حاضنة الخوارج

يُعدُّ الأعراب فئةً من فئات المجتمع العربي القديم، وهم سكان البادية الذين ارتبط نمط حياتهم بالترحال والتنقل وراء موارد المياه ومواطن الكلأ، تبعًا لظروف البيئة الصحراوية ومتطلبات الرعي والمعاش ، وقد كان لهم حضورٌ واضح في مرحلتي الدعوة الإسلامية المكية والمدنية، ولا سيما في العهد المدني؛ إذ تداخلت مواقفهم مع الأحداث السياسية والاجتماعية والعسكرية التي شهدتها الدولة الإسلامية الناشئة في المدينة المنورة.

ومما جاء في تعريف مصطلح (الأَعراب) عند أهل التفسير، ما ذكره الإمام الطبري (ت ٣١٠هـ) في تفسيره، حيث قال : « الأَعراب... جمع أَعرابيّ، وواحد العرب عربيّ، وإنما قيل: أَعرابيّ لأهل البدو، فرقًا بين أهل البوادي والأمصار، فجعل الأَعراب لأهل البادية، والعرب لأهل المصر»[(١)] .

ويبين الرازي أن وصف الأعرابي لا يتعلق بمجرد النسب العربي، وإنما يرتبط أساسًا بنمط الحياة ومكان السكن؛ فالأعرابي هو من أقام في البادية واتخذ الترحال وراء موارد الماء والمرعى سبيلًا لحياته، سواء كان من صميم العرب أو

---

(١) التفسير : ٢٠/٢٣٤ .

ممن دخل في ولائهم. أما لفظ **العربي** فيطلق على من استقر في القرى والأمصار العربية، وبذلك يكون الفارق بين المصطلحين فرقًا اجتماعيًا وحضاريًا أكثر من كونه فرقًا عرقيًا أو نسبيًا(١).

وقد تحدث شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) عن الأعراب في سياق بيانه للفروق بين أهل البادية وأهل الحاضرة، ولم يضع لهم تعريفًا اصطلاحيًا مستقلًا، لكنه أوضح حقيقتهم من خلال بيان موطنهم وطبيعة حياتهم ، فقال : «والأعراب هم سكان البوادي، والعرب أعم من ذلك، فإن العرب اسم جنس لمن تكلم بلسان العرب، سواء كان من أهل البوادي أو الأمصار »(٢).

وبيّن رحمه الله أثر البيئة البدوية في بعض الصفات والسلوكيات، فقال : «ولهذا كان في أهل البادية من الجفاء والغلظة ما ليس في أهل الحاضرة » ، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾ [التَّوۡبَة : ٩٧] (٣).

ومع ذلك أكد ابن تيمية أن هذا الوصف لا يشمل جميع الأعراب، بل إن القرآن فرّق بينهم، فقال :ليس كل الأعراب مذمومين، بل فيهم المؤمنون، كما

---

(١) مفاتيح الغيب : ١٢٥/١٦ .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم : ٤٥٠/١ .

(٣) مجموع الفتاوى : ٢٠/١٩ .

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرۡبَةٞ لَّهُمۡۚ سَيُدۡخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحۡمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٩٩﴾ [التَّوْبَة: ٩٩].

ومن خلال مجموع كلامه يتبين أن الأعراب عند شيخ الإسلام ابن تيمية هم سكان البوادي الذين يتميزون عن أهل الأمصار بنمط حياتهم القائم على البعد عن الحواضر ومراكز العلم، وقد يكون لهذا أثر في ظهور بعض الصفات كالجفاء وقلة الفقه بحدود الشريعة عند بعضهم، مع بقاء التفريق بين من استقام منهم على الإيمان والعلم، ومن تأثر بخصائص البيئة البدوية.

كما جاءت السنة النبوية ببيان ما يغلب على بعض البيئات من الأخلاق والطباع، مع التأكيد على أن ذلك من باب وصف الغالب لا الحكم على جميع الأفراد. ومن الأحاديث الدالة على ذلك ما رواه الإمام البخاري ومسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « **ألا إن القسوة وغلظ القلوب في الفدادين عند أصول أذناب الإبل، حيث يطلع قرنا الشيطان، في ربيعة ومضر** »[1].

وبيّن النبي ﷺ في هذا الحديث: أن القسوة وغلظ القلب يغلبان على الفدادين، وهم أصحاب الإبل الملازمون للبادية، وهذا الوصف ليس لمجرد

---

(١) البخاري (٣٣٠٢) ومسلم (٥٢).

مباشرتهم الإبل، وإنما لما تقتضيه حياة البادية من خشونة الطبع وشدة المعاملة والبعد عن الحواضر ومجالس العلم، ولذلك جاءت ألفاظ الحديث مرتبطة بأصحاب الإبل ومواطن إقامتهم، مما يدل على أن المقصود وصف البيئة وأهلها الذين غلبت عليهم هذه الصفات، لا الحكم على جميع الأفراد.

وقد بين أهل العلم معنى الفدادين، فقال الإمام النووي: «الفدادون هم أصحاب الإبل، وهم الغلاظ الجفاة، وأصل الفداد: رفع الصوت، فسمي أصحاب الإبل بذلك لكثرة صياحهم عليها »[1]، وقال الحافظ ابن حجر: «الفدادون: أصحاب الإبل، الواحد فداد، وقيل: الفداد الذي يعلو صوته » فالفدادون هم أهل الإبل الذين يلازمون البادية، ويغلب عليهم رفع الصوت وشدة الطبع.

ولم يكن تخصيص أصحاب الإبل في الحديث لمجرد مباشرتهم الإبل، وإنما لأنهم كانوا يمثلون غالب سكان البادية من الأعراب ، ولهذا قال الخطابي: «إنما وصفهم بذلك لأن أهل الإبل يسكنون البوادي، وفي البادية الجفاء والغلظة» ، وقال النووي: «لأنهم غالبًا أهل جفاء، لبعدهم عن المدن وعن مجالس العلم، فهم أقسى قلوبًا من غيرهم ، وقال ابن حجر: «خص أصحاب الإبل لأنهم أكثر ملازمة للبادية، وأهل البادية فيهم الجفاء والغلظة.

---

(١) فتح الباري : ٦/٥٣٠ .

ومن هنا يظهر أن العلة التي ذكرها الشراح ليست الإبل في ذاتها، وإنما البيئة البدوية التي يغلب عليها البعد عن الحواضر ومجالس العلم، وما يترتب على ذلك من خشونة الطبع وشدة المعاملة، ولذلك جاء التعبير بقوله ﷺ: « **عند أصول أذناب الإبل**» ، وهي كناية عن ملازمة الإبل ورعيها والإقامة في البادية، كما قال ابن حجر: «أي ملازمين للإبل، لا يفارقونها، وهو كناية عن ملازمتهم رعيها والاشتغال بها» .

وكذلك جاء في السنة قوله ﷺ: « **من بدا جفا** »[1]، وهو حديث يدل على أن سكنى البادية من أسباب حصول الجفاء، وقد قال الخطابي في شرحه: «أي من سكن البادية غلب عليه الجفاء لقلة مخالطة أهل العلم»، وقال المناوي: «الجفاء من لوازم البادية غالبًا» ، وبذلك تتكامل دلالة النصوص في بيان أثر البيئة البدوية في تكوين الطباع.

كما أن قوله ﷺ: « **حيث يطلع قرنا الشيطان، في ربيعة ومضر** » ، لا يراد به ذم قبيلتي ربيعة ومضر على الإطلاق، وإنما الإشارة إلى الجهة التي كانت تسكنها بطون كثيرة من الأعراب أصحاب الإبل ، ولذلك قال الحافظ ابن حجر: «ليس في الحديث ذم لجميع ربيعة ومضر، وإنما خرج على الغالب ممن كان بتلك الناحية من أهل الوبر، وقال النووي: «هذا من العام الذي أريد به غالب أهله ، ومعلوم

---

(١) أبو داود (٢٨٥٩) والترمذي (٢٢٥٦) .

أن في ربيعة ومضر عددًا كبيرًا من الصحابة والتابعين وأئمة الإسلام، فلا يجوز حمل الحديث على العموم.

ويستفاد من مجموع هذه النصوص أن النبي ﷺ ربط القسوة وغلظ القلوب بأهل البادية من أصحاب الإبل، وهم غالب الأعراب في عصره، وأن هذا الوصف إنما هو باعتبار الغالب الناشئ عن طبيعة الحياة البدوية وما يكتنفها من البعد عن الحواضر ومجالس العلم، لا أنه وصف لازم لكل فرد من الأعراب أو لكل من انتسب إلى ربيعة أو مضر، وهذا الفهم هو الذي قرره شراح الحديث، ويعد مفتاحًا مهمًا في فهم الأحاديث الواردة في جهة المشرق ونجد، إذ يظهر منها أن الاعتبار في كثير من تلك النصوص بطبيعة البيئة وسكانها من أهل الوبر والأعراب، لا بمجرد الانتساب القبلي أو الإقليمي.

وقد اتفق عدد من العلماء الذين تناولوا طبيعة الأعراب على أن حياة البادية كان لها أثر في تكوين بعض الصفات النفسية والاجتماعية، ولا سيما الجفاء والغلظة وقلة المخالطة لأهل العلم والحضارة ، فقد ذكر الإمام القرطبي عند تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التَّوْبَة : ٩٧] أن سبب ذلك يرجع إلى : « بعدهم عن سماع القرآن

ومجالسة الرسول ﷺ وأهل العلم» ، فكان الجهل بأحكام الشريعة من آثار بُعدهم عن مراكز التعليم والتربية[1].

ويرى الإمام ابن حزم (ت ٤٥٦هـ) أن من أبرز العوامل التي أسهمت في نشأة الفكر الخارجي اختلال التوازن بين حفظ النصوص وفهمها؛ إذ كان أوائل الخوارج في أصل نشأتهم من الأعراب الذين أقبلوا على قراءة القرآن وتلقِّي ألفاظه قبل أن يكتمل عندهم الفقه في السنة النبوية ومعرفة دلالاتها ومقاصدها. ولذلك افتقدوا التأصيل العلمي الذي يضبط فهم النصوص، ولم يكن في صفوفهم أحد من العلماء الراسخين في الفقه والحديث، فحملوا النصوص على غير مرادها، ونشأ عن ذلك الغلو في الأحكام ومفارقة جماعة المسلمين. قال ابن حزم : « ولكن أسلاف الخوارج كانوا أعرابًا قرؤوا القرآن قبل أن يتفقهوا في السنن الثابتة عن رسول الله ﷺ، ولم يكن فيهم أحد من الفقهاء»[2].

وذكر ابن كثير في تفسير الآية أن سبب اتصاف بعض الأعراب بهذه الصفات هو : « كثرة جهلهم وبعدهم عن معرفة الشرائع وما أنزل الله على رسوله» [3].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن : ٢٢٦/٨ .

(٢) الفصل : ١٢١/٤ .

(٣) التفسير : ١١٧/٤ .

ويأتي تحليل ابن خلدون أكثر شمولًا من جهة النظر الاجتماعي؛ إذ ربط بين طبيعة البيئة البدوية وبين تكوين الطباع، فذكر أن أهل البدو لما عاشوا حياة تقوم على الشدة والخشونة وقلة الاجتماع بالحضر غلب عليهم **الجفاء والغلظة**، فقال: « والبدو لتفردهم عن الاجتماع والحضارة يكون فيهم من الغلظة والجفاء ما لا يكون في أهل الحضر »[1] ، مبينًا أن خشونة العيش والتعوّد على مواجهة ظروف الصحراء تؤثر في السلوك الإنساني، فتجعل صاحبها أشد تمسكًا بعوائد القبيلة وأقل قابلية للانقياد للأنظمة الاجتماعية والتعليمية التي تنشأ في الحواضر. ومع ذلك فإن هذه الأوصاف لا تعني ذم جميع الأعراب، فقد قرر القرآن وجود مؤمنين صالحين منهم، وإنما المقصود بيان أثر البيئة البدوية في بعض الفئات التي لم تنل حظًا كافيًا من العلم والتربية.

لم يكن وصف (الأعراب) في القرآن الكريم مجرد توصيف جغرافي لمن يسكنون البادية في مقابل أهل الحواضر، بل حمل في بعض سياقاته أبعادًا اجتماعية وتربوية تتعلق بطبيعة البيئة البدوية وما قد ينشأ عنها من صفات تؤثر في السلوك وطريقة التلقي، فقد أشار القرآن إلى أن بعض الأعراب كانوا أبعد عن إدراك حدود الشريعة وفهم مقاصدها، فقال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا۟ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة

(١) المقدمة: ١٢٧.

: ٩٧] وقد فسّر العلماء ذلك بأن من أسباب هذه الحال بُعدهم عن مجالس العلم، وقلة مخالطتهم للنبي ﷺ وأهل الإيمان في المدينة، وما يترتب على حياة البادية من خشونة الطبع والجفاء في التعامل والتلقي.

وقد ظهر أثر هذه الطبيعة في بعض المواقف التي سجلتها السنة والتاريخ في العهد النبوي؛ إذ كان بعض الأعراب يتعاملون مع الدعوة الإسلامية والدولة الناشئة بمنطق القبيلة والمصلحة المباشرة، ولم يكونوا قد تخلصوا تمامًا من آثار البيئة الجاهلية التي تقوم على العصبية وحفظ المصالح الخاصة، مما جعل بعضهم أسرع إلى الاعتراض أو الشك أو تقديم الاعتبارات القبلية على مقتضيات الانقياد للشريعة. ولا يعني ذلك ذم جميع الأعراب؛ فقد أثبت القرآن وجود مؤمنين صالحين منهم، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَٰتٍ عِندَ ٱللَّهِ وَصَلَوَٰتِ ٱلرَّسُولِۚ أَلَآ إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْۚ سَيُدْخِلُهُمُ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٩٩﴾ [التَّوْبَة : ٩٩]، وإنما الحديث عن ظاهرة اجتماعية ظهرت عند طائفة منهم.

ومن الشواهد التي تكشف جانبًا من هذه الجفوة في التعامل مع أحكام الإسلام وقيم المجتمع المدني قصة رهط عُرَيْنة، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه" :أن ناسًا من عُرَيْنَة اجتووا المدينة، فرخَّص لهم النبي ﷺ أن يأتوا إبل

الصدقة، فيشربوا من ألبانها وأبوالها، ففعلوا فصحوا، ثم ارتدوا وقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الإبل "...الحديث[1].

وذكر علماء النسب أن عُرَيْنة من بجيلة، (وقيل: من قَيس عيلان عند بعض أهل النسب في نسبة بعض فروعها)، والمشهور عند أهل الأنساب أن عُرَيْنة بطن من بجيلة، وكانت منازل بجيلة في الجاهلية وصدر الإسلام في **سراة جبال الحجاز وما يليها**، ثم تفرقت بطونها بعد الإسلام[2].

تُعد قصة رهط عُرَيْنة من الوقائع التي أبرزت بعض الصفات التي ظهرت عند طائفة من الأعراب في صدر الإسلام، ولا سيما ما يتعلق بالجفاء وقسوة الطبع وسرعة الانتقال من حال إلى حال دون مراعاة لحرمة العهد أو مقتضيات الإحسان ، فقد قدم هؤلاء إلى المدينة وهم في حال ضعف ومرض، فاستقبلهم النبي ﷺ بالرحمة والرفق، وأذن لهم بالتداوي بإبل الصدقة، فلما صحت أبدانهم انقلبوا على من أحسن إليهم، فقتلوا راعي النبي ﷺ واستاقوا الإبل ، وقد أشار شُرّاح الحديث إلى عظم جنايتهم، وأنها لم تكن مجرد مخالفة عارضة، بل جمعت بين الغدر والعدوان ونقض الأمان.

---

(١) البخاري (٦٨٠٢) .

(٢) ابن حزم (الجمهرة : ٣٨٧) .

قال الإمام النووي عند شرحه لحديث عرينة :« فيه أن هؤلاء القوم كانوا مرتدين محاربين، وأنهم جمعوا بين الردة والقتل وأخذ المال»[١] ، مبينًا أن فعلهم يدل على شدة الانحراف، إذ لم يكتفوا بترك الإسلام، بل اعتدوا على الأنفس والأموال بعد أن نالوا الرعاية والإحسان .

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في شرحه لقصة عرينة: « إن هؤلاء القوم جمعوا بين الكفر والقتل والمحاربة»[٢] ، وذكر أن ما صدر منهم كان من أعظم الجرائم؛ لأنهم قابلوا إحسان النبي ﷺ إليهم بالغدر، بعد أن أذن لهم بما يصلح حالهم.

وبيّن القاضي عياض أن في القصة دلالة على شدة جفاء هؤلاء القوم، فقال إنهم لما وجدوا العافية بعد مرضهم : « غدروا وقتلوا وساقوا الإبل»[٣] ، فكان انتقالهم من طلب الرحمة إلى ارتكاب الجريمة دليلًا على قسوة القلوب وضعف الوفاء بالعهد.

وتبرز هذه الحادثة التباين بين سماحة النبي ﷺ في معالجة أحوال الوافدين وتأليف قلوبهم، وبين ما ظهر من بعض أولئك الأعراب من غلظة وخيانة

---

(١) شرح صحيح مسلم : ١٥٣/١١ .

(٢) فتح الباري : ١١٠/١٢ .

(٣) إكمال المعلم : ٥٣٦/٥ .

ونقض للعهد؛ فقد قابلوا الإحسان بالعنف، والرعاية بالغدر، مما يعكس بقاء بعض الرواسب القبلية والجاهلية التي كانت تجعل المصلحة الشخصية والانتماء الضيق مقدَّمين على مقتضيات الدين والجماعة.

وهذه الحادثة توافق ما ذكره العلماء في تفسير طبيعة بعض الأعراب في صدر الإسلام؛ فإن حياة البادية وما يصاحبها من خشونة العيش، وقلة مخالطة العلماء، وشدة التعلق بالعصبية والمصالح القبلية، قد تؤدي عند بعض الأفراد إلى ظهور الجفاء وقلة الانقياد للضوابط الشرعية. ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا كان في أهل البادية من الجفاء والغلظة ما ليس في أهل الحاضرة »، وربط ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٨﴾﴾ [التَّوْبَة: ٩٨].

المبحث الرابع
قادة الخوارج وقبائلهم

تمهيد :

لم تكن ظاهرة الخوارج وليدة فراغ اجتماعي أو فكري، وإنما نشأت في بيئة قبلية كان للبادية وأبنائها حضور بارز فيها؛ إذ إن كثيرًا من الشخصيات التي حملت لواء الفكر الخارجي في بداياته كانت تنتمي إلى قبائل عربية عاشت حياة البادية، وتأثرت بطبيعة المجتمع القبلي الذي يقوم على قوة العصبية، وشدة التمسك بالرأي، وسرعة الانتصار لما يراه الفرد حقًا، مع ما قد يصاحب ذلك من قلة التفقه في مقاصد الشريعة عند بعض الأفراد الذين لم تتوفر لهم أدوات العلم الراسخ.

ويكشف تتبع سير قادة الخوارج ورجالاتهم أن عددًا كبيرًا منهم خرج من الأعراب الذين كان لهم امتداد في وسط الجزيرة العربية ونجد وما جاورها، ثم انتقلوا بعد الفتوحات الإسلامية إلى الأمصار، ولا سيما الكوفة والبصرة، حيث اختلطت البيئة القبلية بالاضطرابات السياسية التي أعقبت الفتنة الكبرى، فكانت تلك الظروف سببًا في ظهور حركة الخوارج وانتشار دعوتهم. ومن هنا فإن دراسة قادتهم لا تقتصر على مواقفهم السياسية والعسكرية، بل تتطلب النظر

في أصولهم القبلية، وبيئاتهم الاجتماعية، والعوامل التي أسهمت في تكوين شخصياتهم.

وقد لاحظ علماء الفرق والعقائد أن الخوارج الأوائل لم يكونوا من أهل الرفاه والحضارة، بل كان غالبهم من الأعراب وأبناء القبائل الذين عُرف عن بعضهم الجفاء وقلة الفقه، مع وجود حماس ديني قوي ورغبة في تطبيق ما يعتقدونه من أحكام دون الرجوع إلى فقه الصحابة والعلماء. ولذلك قرر العلماء أن انحرافهم لم يكن بسبب قلة العبادة أو ضعف التمسك بالنصوص، بل بسبب سوء الفهم، والجرأة على أهل العلم، وتقديم الفهم الخاص للنصوص على المنهج الذي سار عليه الصحابة.

ومن أبرز الأمثلة على ذلك **ذو الخويصرة التميمي** الذي عده العلماء البداية الأولى لظهور صفات الخوارج؛ فقد كان من بني تميم، وهي قبيلة ذات جذور نجدية، وظهر في اعتراضه على النبي ﷺ نمط من التفكير الذي سيظهر لاحقًا عند الخوارج، وهو الاعتراض على أهل الحق بدعوى القيام بالعدل، مع غياب الفقه بحقيقة النصوص والمقاصد.

وسيتناول هذا المبحث أبرز قادة الخوارج ورجالاتهم، مبتدئًا بالشخصيات المرتبطة بالنشأة الأولى، ثم قادة الفرق الخارجية الكبرى، مع دراسة أنسابهم، وبيئاتهم القبلية، وأدوارهم التاريخية، وأفكارهم، لبيان كيف انتقلت ظاهرة

فردية في بداياتها إلى حركة فكرية وعسكرية كان لها أثر كبير في التاريخ الإسلامي.

من هذا الباب فإن دراسة الأصول المكانية لقادة الخوارج مفتاحاً جوهرياً لفهم التحولات الفكرية التي عصفت بالدولة الإسلامية، إذ لم تكن قيادتهم مؤسسية بل تجسيداً لاندفاعات فردية وتصلب قبلي.

والآن نستعرض أسماء قادة الخوارج الذين ورد ذكرهم في المصادر، متتبعين أثرهم وتأثيرهم في توجيه مسارات الحركة.

١. ذو الخويصرة:

من أبرز الشخصيات التي ارتبطت بالبدايات الأولى لظهور الفكر الخارجي في التاريخ الإسلامي؛ إذ كان أول من عُرف عنه الاعتراض على النبي ﷺ في قسمة من القِسَم، فظهر في كلامه نوع من الجفاء وسوء الفهم لمقام النبوة، حتى قال النبي ﷺ محذرًا منه ومن أمثاله: « **يخرج من ضِئْضِئِ هذا قومٌ يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم...** »، وقد عدّ العلماء قصته أصلًا من أصول ظهور الخوارج من جهة الصفات والمنهج، وإن لم يكن الخوارج كفرقة منظمة قد ظهروا في زمنه، وبنو تميم قبيلة مضرية عدنانية عظيمة، كانت مواطنها الأصلية في **نجد وما جاورها**، وقد ذكر علماء الأنساب والجغرافيا أن انتشارها كان في وسط الجزيرة العربية، ولا سيما مناطق **الدهناء والصمّان واليمامة وأطراف نجد الشمالية**

والشرقية .قال الهمداني في وصف قبائل الجزيرة العربية إن بني تميم من القبائل المشهورة في نجد، وذكر اتصال منازلهم بمواضعها المعروفة. قال ياقوت الحموي عند حديثه عن مواضع الجزيرة العربية إن بني تميم كانت من القبائل التي عُرفت بكثرة الانتشار في نواحي نجد.

٢. عبد الله بن وهب الراسبي :

يُعد عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي من أبرز قادة الخوارج الأوائل، بل هو أول من تولى زعامة الجماعة التي عُرفت بعد ذلك باسم الخوارج عقب حادثة التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وتمثل شخصيته مرحلة مهمة في تطور الظاهرة الخارجية؛ إذ انتقلت فيها من مجرد اعتراضات فردية على بعض المواقف السياسية إلى حركة لها قيادة وتنظيم ومشروع مستقل في مواجهة جماعة المسلمين.

وبنو راسب هم من رَاسب بن مالك بن نصر بن الأزد، من قبائل الأزد القحطانية ، قال ابن حزم: ومن بطون الأزد: راسب بن مالك بن نصر بن الأزد.

والأزد من القبائل العربية الكبرى التي يرجع أصلها إلى اليمن، ثم تفرقت بطونها في أنحاء الجزيرة العربية بعد الهجرات القديمة، فمنهم من استقر في السراة، ومنهم من ذهب إلى عُمان، ومنهم من هاجر إلى بلاد الشام، ويذكر أهل الأخبار أن كثيرًا من بطون الأزد كانت ضمن قبائل **السراة**، وهي الجبال الممتدة

بين الحجاز واليمن[1]، ثم انتقل كثير من أفرادها إلى الأمصار الإسلامية بعد الفتوحات، ولا سيما البصرة والكوفة.

وبذلك يتضح أن القاسم المشترك بين غالب قادة الخوارج الأوائل لم يكن الانتماء إلى إقليم نجد تحديدًا، وإنما الانتماء إلى بيئات قبلية عربية كان يغلب عليها الطابع الأعرابي ؛ إذ إن كثيرًا منهم نشأوا في قبائل ذات أصول بدوية، ثم انتقلوا إلى الأمصار بعد الفتوحات الإسلامية، فحملوا معهم بعض السمات الاجتماعية التي أشار إليها العلماء، كالجفاء في الطبع، وقلة التفقه، وسرعة الانقياد للفهم الظاهري للنصوص.

٣. حرقوص بن زهير السعدي :

يُعد حَرْقُوص بن زُهَيْر السَّعْدي التميمي من الشخصيات المحورية في نشأة الخوارج، فقد كان من الذين ارتبطت أسماؤهم بحادثة **التحكيم** بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وكان من أبرز المعترضين على قبول التحكيم، ثم صار لاحقًا من قادة الخوارج في معركة النهروان سنة ٣٨هـ ، وتكتسب شخصيته أهمية خاصة؛ لأنه يمثل الانتقال من مرحلة الاعتراض الفردي الذي ظهر عند ذي الخويصرة التميمي إلى مرحلة التمرد الجماعي المنظم.

---

(١) الهمداني (صفة جزيرة العرب : ١١٧) .

وكانت بنو سعد – التي نسب إليها حرقوص – من أشهر بطون تميم، وكانت منازلها في نجد وما جاورها، ولا سيما في الجهات الواقعة بين الدهناء والصمّان واليمامة، وهي من المواطن التي عُرفت بانتشار قبائل تميم فيها قبل الإسلام وفي صدر الإسلام ، ذكره ابن حزم في ذكر بطون تميم: ومن بني تميم بنو سعد بن زيد مناة بن تميم، وهم بطن عظيم [1].

٤. زُرْعَة بن البُرْج الطائي :

يُعد زُرْعَة بن البرج الطائي من الشخصيات التي ظهرت في صفوف الخوارج الأوائل بعد حادثة التحكيم بين علي بن أبي طالب ومعاوية رضي الله عنهما، وكان من أبرز الدعاة إلى رفض التحكيم، ومن الذين حملوا شعار **(لا حكم إلا لله)** ، ثم انتهى به الأمر إلى أن كان من قادة الخوارج الذين اجتمعوا على قتال علي رضي الله عنه في وقعة النهروان سنة ٣٨هـ.

وهو زُرْعَة بن البرج، ويُنسب إلى **طيء**، وهي قبيلة عربية قحطانية كبيرة، من أشهر قبائل العرب في الجاهلية والإسلام. وكانت منازل طيء قبل الإسلام في شمال الجزيرة العربية، ولا سيما في منطقة جبلي أَجَأ وسلمى (جبلي طيء، حائل

---

(١) الجمهرة : ص٢١٩ .

حاليًا) ، وما حولها، ثم انتشرت بطون منها بعد الإسلام في العراق والشام وغيرها.

وظهر اسم زرعة بن البرج في أحداث التحكيم، وكان ممن أنكروا على علي رضي الله عنه قبوله التحكيم، ورأوا أن ذلك مخالفة لقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأَنْعَام: ٥٧] ، وهو الفهم الذي أصبح شعارًا للخوارج بعد ذلك.

وقد ذكر المؤرخون أن زرعة كان من الذين بالغوا في إنكار التحكيم، حتى صار من رؤوس القوم الذين اجتمعوا على مفارقة جماعة المسلمين، وكان من المشاركين في أحداث النهروان، قال الطبري في أحداث سنة ٣٨هـ عند ذكره اجتماع الخوارج: « وكان من رؤوسهم عبد الله بن وهب الراسبي، وحرقوص بن زهير، وزرعة بن البرج »(١).

٥. عُرْوَة بن أُدَيَّة :

يُعد عُرْوَة بن أُدَيَّة التميمي من الشخصيات المبكرة التي ارتبط اسمها بالخوارج، ومن الرجال الذين ظهر في مواقفهم نمط التفكير الذي عُرف به هذا الاتجاه من الجرأة في الاعتراض، والتشدد في فهم النصوص، وتقديم الاجتهاد الخاص على فهم الصحابة وأئمة المسلمين.

---

(١) التاريخ: ٥/ ٨٢.

واشتهر في كتب التاريخ بكونه من رجال الخوارج الأوائل ، وأُدَيَّة من بطون تميم، وهي قبيلة مضرية عدنانية كبيرة، كانت من أشهر مواطنها قبل الإسلام وصدره نجد وما جاورها، ولا سيما مناطق الدهناء والصمّان واليمامة[1].

ينتمي عروة بن أُدَيَّة إلى بني تميم، وهي من القبائل ذات الامتداد النجدي، إلا أن أهم ما يلفت النظر في دراسة شخصيته ليس مجرد موقع القبيلة الجغرافي، بل البيئة القبلية التي نشأ فيها؛ إذ إن الخوارج الأوائل لم يجمعهم إقليم واحد بقدر ما جمعتهم خصائص اجتماعية وفكرية، كان من أبرزها انتماؤهم إلى قبائل عربية ذات جذور بدوية.

٦. أبو بلال مِرْداس بن أُدَيَّة:

هو مِرْداس بن أُدَيَّة التميمي، ويكنى أبا بلال، من بني تميم، وقيل: من بني ربيعة بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم[2].

وبنو تميم من القبائل المضرية العدنانية الكبرى، وكانت مواطنهم الأصلية في نجد وما جاورها، ولا سيما في مناطق الدهناء والصمّان واليمامة، ثم انتشرت بطون منهم بعد الإسلام في البصرة والكوفة وغيرها من الأمصار.

---

(١) الطبري (التاريخ : ٥/ ٥٥) ؛ ابن الأثير (الكامل في التاريخ : ٢/ ٦٧٢) .

(٢) ابن كثير (البداية والنهاية : ٨/ ٥٥) .

وكان أبو بلال من أصحاب نافع بن الأزرق في بداية الأمر، ثم خالفه بسبب تشدده وغلوه، ولا سيما في قضية تكفير المخالفين واستحلال دمائهم، فاختار طريقًا أكثر اعتدالًا من الأزارقة، ولذلك صار من رموز الفرقة التي عُرفت لاحقًا بـالصفرية قال الشهرستاني: « والصفرية أصحاب زياد بن الأصفر، وقيل: إنهم أصحاب أبي بلال مرداس بن أُدَيَّة »[1].

تمثل شخصية أبي بلال مرداس مرحلة مهمة في تطور الحركة الخارجية؛ فهو من جهة ينتمي إلى بني تميم ذات الامتداد النجدي، ومن جهة أخرى يكشف عن انتقال الخوارج من قادة النهروان الذين ارتبطوا بالتمرد العسكري المباشر إلى اتجاهات متعددة ظهرت في البصرة وغيرها.

كما أن سيرته تؤكد أن العامل المشترك في الخوارج لم يكن مجرد الانتماء الجغرافي إلى نجد، وإنما اجتماع عناصر قبلية وأعرابية مع فهم متشدد للنصوص؛ فقد كان أبو بلال من بيئة قبلية بدوية الأصل، لكنه ظهر في مجتمع البصرة، وهي إحدى أهم حواضر الإسلام آنذاك.

---

(١) الشهرستاني (الملل والنحل : ١/١٣٢) .

٧. زَيْد بن حُصَيْن الطائي :

هو زَيْد بن حُصَيْن الطائي، وينتسب إلى قبيلة طيء، وهي من القبائل العربية القحطانية المشهورة. وكانت ديار طيء قبل الإسلام في شمال الجزيرة العربية، ولا سيما حول جبلي أَجَأ وسلمى (منطقة حائل حاليًا)، وهما أشهر منازلهم، ثم انتقلت بطون منها بعد الإسلام إلى العراق والشام وغيرها من الأمصار[١].

كان زيد بن حصين ممن أنكروا قبول التحكيم بعد معركة صفين، وكان من الذين رفعوا شعار: (لا حكم إلا لله)، وقد كان من الشخصيات التي أثرت في جماعة الخوارج الأولى، وشارك في اجتماعهم الذي انتهى إلى اختيار عبد الله بن وهب الراسبي أميرًا لهم.

وذكر المؤرخون أنه كان من أصحاب عبد الله بن وهب الراسبي في النهروان، وكان له حضور في قيادة الخوارج يوم القتال، وقد ذكره الطبري في جملة رؤوس الخوارج الذين اجتمعوا بعد التحكيم في أحداث سنة ٣٧ و٣٨هـ[٢].

تكشف شخصية زيد بن حصين أن الخوارج لم يكونوا مقصورين على بني تميم أو على أعراب نجد، فقد كان من قادتهم رجال من قبائل مختلفة؛ فهو من

---

(١) الهمداني (صفة جزية العرب : ١٧٠) وابن حزم (الجمهرة : ٣٩٠) .

(٢) التاريخ : ٥/٧٦ .

طيء ذات الديار الشمالية، كما كان عبد الله بن وهب من الأزد، وحرقوص وذو الخويصرة من تميم، وهذا يؤكد أن العامل الجامع بين هؤلاء لم يكن وحدة الموطن، وإنما اجتماعهم على بيئة قبلية عربية ذات جذور بدوية، ثم انتقالهم إلى الأمصار الإسلامية حيث ظهرت حركتهم السياسية والفكرية.

٨. يزيد بن عاصم المُحَارِبي:

هو يزيد بن عاصم المُحَارِبي، وينتسب إلى بني مُحارب بن خصفة بن قيس عيلان، وهم من القبائل العدنانية المشهورة ، وكانت منازل بني محارب قبل الإسلام في نجد، ولا سيما في الجهات الغربية والوسطى منها، وكانت ديارهم متاخمة لديار هوازن وغطفان، ثم انتقلت جماعات منهم بعد الفتوحات إلى العراق واستقرت في الكوفة والبصرة وغيرها من الأمصار[١].

تكشف شخصية يزيد بن عاصم المحاربي استمرار الحضور القبلي النجدي في صفوف الخوارج؛ إذ ينتمي إلى بني محارب، وهي قبيلة قيسية عُرفت بمواطنها في نجد قبل الإسلام، ثم انتقل كثير من أفرادها إلى العراق بعد الفتوحات[٢].

---

(١) ابن حزم (الجمهرة : ٢٦٢) .

(٢) ابن الأثير (التاريخ : ٢/٦٨٥) .

ومن ثم يضاف يزيد بن عاصم إلى عدد من قادة الخوارج الذين ترجع أصولهم القبلية إلى قبائل نجد، مثل ذي الخويصرة التميمي، وحرقوص بن زهير السعدي، وأبي بلال مرداس التميمي، وهو ما يؤكد أن القبائل النجدية كان لها حضور واضح في البدايات الأولى للحركة الخارجية، مع بقاء الحقيقة التاريخية أن الحركة لم تقتصر عليها، بل شاركت فيها قبائل أخرى كالأزد وطيء.

٩. شَبَث بن رِبْعي:

هو شَبَث بن رِبْعي بن حصين التميمي الحنظلي، من بني تميم، إحدى أكبر القبائل المضرية العدنانية. وكانت منازل بني تميم قبل الإسلام وفي صدره في نجد وما جاورها، ولا سيما في مناطق الدهناء والصمّان واليمامة، ثم انتقلت جماعات كبيرة منهم إلى الأمصار الإسلامية بعد الفتوحات، وكان لهم حضور قوي في الكوفة والبصرة.

كان لشبث بن ربعي حضور في أحداث العراق في زمن بني أمية، وكان من الشخصيات المؤثرة في الكوفة، ثم شارك في الأحداث التي سبقت مقتل الحسين ابن علي رضي الله عنهما، وكان من الذين كتبوا إليه، ثم كان ضمن القيادات التي

شاركت في قتاله، وهي مرحلة اشتهر بها في كتب التاريخ، وقد ذكر الطبري أخبار مشاركته في أحداث كربلاء ضمن قادة جيش عبيد الله بن زياد[1].

١٠. نافع بن الأزرق :

هو نافع بن الأزرق بن قيس الحنفي، من بني حنيفة، إحدى قبائل بكر بن وائل من ربيعة ، وكانت ديار بني حنيفة قبل الإسلام في اليمامة، وهي من أشهر أقاليم نجد، وقد كانت من القبائل الكبيرة المستقرة في وسط الجزيرة العربية، ولها مدن وقرى وزراعة، ولا سيما في منطقة حَجْر (الرياض حاليًا) وما حولها ، وذكر الهمداني أن اليمامة كانت من بلاد نجد المشهورة، وكانت منازل بني حنيفة فيها.

ظهر نافع بن الأزرق بعد مقتل علي رضي الله عنه واستقرار الخوارج في البصرة، وكان من أصحاب عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في النقاش والمناظرة قبل أن ينحرف إلى مذهب الخوارج ، وإليه تنسب فرقة الأزارقة ، قال البغدادي : « وهم غلاة الخوارج »[2].

بعد خروجه من البصرة، توجه نافع وأتباعه إلى مناطق الأحواز وفارس وكرمان، وسيطروا على مناطق واسعة، ودخلوا في قتال طويل مع الدولة

---

(١) الطبري (التاريخ : ٥/٥٨) .

(٢) الفرق بين الفرق : ٥٤ .

الأموية، وقُتل نافع بن الأزرق سنة ٦٥هـ تقريبًا في مواجهة مع جيش المهلب بن أبي صفرة في منطقة دولاب بالأحواز[1].

تمثل شخصية نافع بن الأزرق امتدادًا لظاهرة الخوارج ذات الجذور القبلية؛ فهو من **بني حنيفة**، وهي قبيلة نجدية عريقة، **مما** يضيف مثالًا آخر على حضور بعض قبائل نجد في تاريخ الخوارج.

---

(١) الطبري (التاريخ : ٥/٦١٤) .

المبحث الخامس
العراق والخوارج

وبعد استعراض أبرز الشخصيات التي ارتبطت بنشأة الخوارج وقادتهم الأوائل، يظهر أن عددًا كبيرًا من رموز هذه الحركة كانوا من قبائل ذات امتداد نجدي أو من قبائل استوطنت نجد في الجاهلية وصدر الإسلام، وفي مقدمتهم ذو الخويصرة التميمي، وحرقوص بن زهير السعدي، وأبو بلال مرداس بن أُدَيّة، وعبد الله بن إباض التميمي، وغيرهم. ومع ذلك فإن هذا لا يعني حصر الخوارج في نجد أو جعل الإقليم وحده سببًا في نشوء هذه الظاهرة؛ فقد شاركت فيها قبائل عربية أخرى كالأزد وطيء وغيرها. غير أن الحضور الواضح للقبائل النجدية، ولا سيما بني تميم، في القيادات الأولى للحركة، يمثل ظاهرة جديرة بالدراسة.

كما أن من الملاحظ تاريخيًا أن أتباع هذه القيادات كانوا في الغالب من أبناء القبائل التي ينتمون إليها، وهو أمر ينسجم مع طبيعة التنظيمات القبلية في صدر الإسلام؛ إذ كانت العصبية القبلية والانتماءات العشائرية عنصرًا مؤثرًا في تشكيل الجماعات السياسية والعسكرية، حيث كان الفرد غالبًا يتحرك ضمن جماعته القبلية، ولذلك فإن انتشار الفكر الخارجي في بعض القبائل لا يُفهم من

خلال الأفكار المجردة وحدها، بل من خلال البيئة الاجتماعية والقبلية التي احتضنتها.

ويؤكد ذلك حادثة الاتفاق على اغتيال كبار الصحابة في ليلة واحدة، حين اجتمع ثلاثة من الخوارج على قتل علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص رضي الله عنهم، وهم: عبد الرحمن بن ملجم المرادي، الذي تولى قتل علي رضي الله عنه في الكوفة، والمراد قبيلة قحطانية من مَذْحِج، وكانت من القبائل اليمنية التي استوطنت الكوفة بعد الفتوحات؛ والبرك بن عبد الله التميمي، الذي حاول قتل معاوية رضي الله عنه في الشام، وهو من بني تميم، القبيلة المضرية العدنانية التي كانت من أكبر قبائل نجد قبل الإسلام وصدره؛ وعمرو بن بكر التميمي، الذي قصد قتل عمرو بن العاص رضي الله عنه في مصر، وهو كذلك من بني تميم.

وتكشف هذه الحادثة عن مدى انتشار الفكر الخارجي في جماعات قبلية متعددة؛ فلم يكن هذا الفكر مرتبطًا بقبيلة واحدة، إلا أن حضور القبائل ذات الجذور النجدية كان ظاهرًا، ولا سيما بني تميم التي خرج منها عدد من أبرز رموز الخوارج. كما أن انضمام أفراد من قبائل مختلفة، كمراد من مذحج وتميم من مضر، يدل على أن الظاهرة الخارجية تجاوزت حدود النسب الواحد، مع بقاء البيئة القبلية العربية عنصرًا مهمًا في تكوينها وانتشارها.

وإذا كان العراق قد ارتبط في كتب التاريخ بأحداث الخوارج الكبرى، فإن هذا الارتباط لا يعني بالضرورة أنه كان موطن نشأتهم أو الحاضن الأول لفكرهم؛ فهناك فرق منهجي بين المكان الذي وقعت فيه الأحداث، وبين البيئة التي خرج منها أصحاب هذه الأفكار ورجالها. فقد كانت الكوفة والبصرة مسرحًا لكثير من وقائع الخوارج بسبب كونهما من أكبر الأمصار الإسلامية التي اجتمعت فيها القبائل العربية بعد الفتوحات، وليس لأن أهل العراق كانوا مصدر هذه الظاهرة أو منشأها.

وبالرجوع إلى تراجم رجال الخوارج الأوائل وقادتهم، نجد أن معظم الأسماء التي ارتبطت بتأسيس الحركة وقيادتها ترجع إلى قبائل عربية كانت مواطنها الأصلية خارج العراق، ولا سيما قبائل الجزيرة العربية، ومن أبرزها: ذو الخويصرة التميمي، وحرقوص بن زهير السعدي، وأبو بلال مرداس بن أُدَيّة، ونافع بن الأزرق الحنفي، وعبد الله بن إباض التميمي، وزيد بن حصين الطائي، وغيرهم ، كما أن من قادة النهروان عبد الله بن وهب الراسبي، وهو أزدي الأصل، والأزد من قبائل اليمن، مما يدل على أن الظاهرة الخارجية لم تكن عراقية المنشأ، بل كانت نتاج تداخل قبلي عربي واسع انتقل بعضه إلى العراق بعد الفتوحات.

ومن هنا فإن نسبة الخوارج إلى العراق لمجرد وقوع أحداثهم الكبرى فيه يشبه نسبة الحوادث التاريخية إلى مكان وقوعها دون النظر إلى جذورها البشرية

والفكرية؛ فالعراق كان ساحة المواجهة، وميدان الصراع، ومحل تدوين الأخبار، لكنه لم يكن بالضرورة مصدر الرجال الذين صنعوا هذه الظاهرة. فقد كانت الكوفة والبصرة تضم قبائل عربية وافدة من مناطق مختلفة، وكان كثير من عناصر الحركات السياسية في ذلك العصر يتحركون وفق الانتماء القبلي قبل الانتماء الجغرافي.

بل إن المتأمل في أسماء قادة الخوارج الأوائل لا يكاد يجد بينهم شخصية عراقية الأصل نشأت في بيئة العراق قبل الإسلام أو كان أصلها من سكان العراق القدماء؛ وإنما نجد رجالًا من تميم، وبكر بن وائل، وطيء، والأزد، ومذحج وغيرها من قبائل العرب التي انتقلت إلى الأمصار بعد الفتح. ولذلك فإن العراق كان مسرحًا للخوارج أكثر من كونه منبتًا لهم، وكان أرض المواجهة لا أرض النشأة.

ومن أوضح الأمثلة على ذلك نشاط الخوارج في منطقة الأحواز وفارس؛ فقد أصبحت هذه المناطق في العصر الأموي ميدانًا واسعًا لتحركاتهم، ولا سيما بعد ظهور الأزارقة بقيادة نافع بن الأزرق، حيث تمكنوا من السيطرة على أجزاء من الأحواز، واتخذوها مركزًا لنشاطهم العسكري، وخاضوا فيها معارك طويلة مع الدولة الأموية وقادتها، حتى قُتل نافع بن الأزرق في تلك النواحي، ثم استمر نشاط الخوارج فيها بعده.

فلو كانت قاعدة الاستدلال التاريخي هي أن المكان الذي شهد أكبر نشاط للخوارج هو موطن نشأتهم، للزم أن يقال إن الأحواز هي أصل الخوارج، لأن فيها دارت مرحلة طويلة من تاريخهم العسكري، ولأنها كانت مركزًا رئيسيًا للأزارقة في فترة من الزمن، وهذا قول لا يقول به أحد من المؤرخين؛ مما يدل على أن معيار النسبة لا يكون بمحل وقوع الأحداث، وإنما بالنظر إلى أصول الجماعة وقادتها وبيئتها التي تشكلت فيها.

وعليه فإن الوصف الأدق تاريخيًا أن الخوارج لم يكونوا (عراقيين) من حيث النشأة القبلية، وإنما كانوا جماعة عربية متعددة العناصر، كان غالب قادتها من قبائل ذات أصول بدوية، وكان لنجد وقبائلها حضور بارز في المرحلة الأولى، ولا سيما بني تميم، بينما كان العراق هو المسرح الذي تجمعت فيه هذه العناصر، ومنه انطلقت المواجهات الكبرى التي حفظتها كتب التاريخ.

المبحث السادس
لماذا العراق ..؟!

إن ارتباط الخوارج بالعراق في كتب التاريخ لا يعود إلى كون العراق هو الموطن الأصلي لنشأة هذه الحركة، وإنما يعود إلى جملة من العوامل التاريخية والسياسية والاجتماعية التي جعلت منه المسرح الأبرز لنشاطهم وانتشارهم. فبعد الفتوحات الإسلامية تحولت الكوفة والبصرة إلى أمصار عسكرية كبرى، واستقبلت أعدادًا كبيرة من القبائل العربية القادمة من مختلف مناطق الجزيرة العربية واليمن، فأصبحت هذه المدن مراكز للتجمع القبلي والتفاعل السياسي والفكري. ولذلك كان طبيعيًا أن تظهر فيها الحركات المعارضة؛ لأنها كانت تضم جيوشًا وقبائل وشخصيات لها حضور في الحياة العامة، وليس لأن طبيعة أهل العراق كانت سببًا في ظهور هذه الأفكار.

إن الربط التقليدي بين (الخوارج) و(العراق) في المدونات التاريخية يثير إشكالية منهجية تتجاوز مجرد سرد الأحداث؛ إذ يُنظر إلى العراق غالباً كحاضنة طبيعية لنشوء هذه الحركة، بينما تشير القراءة الفاحصة إلى أن هذا الارتباط هو علاقة (مسرح سياسي) لا (موطن نشأة) ، فبعد الفتوحات الإسلامية، تحولت الكوفة والبصرة من معسكرات عسكرية إلى أمصارٍ كبرى استقبلت تيارات قبلية

من مختلف أصقاع الجزيرة العربية واليمن، هذا التداخل السكاني الكثيف خلق بيئة للتفاعل السياسي والفكري المضطرب، فكان من الطبيعي أن تظهر الحركات المعارضة في هذه الأمصار؛ لأنها كانت مراكز ثقل الجيش والقبائل، وليست لأن طبيعة أهل العراق كانت (جينياً) مهيأة لإنتاج هذه الأفكار.

أولاً: جدلية النشأة العسكرية والنزوح القبلي : إن التدقيق في أنساب قادة الخوارج الأوائل يكشف أنهم (عناصر وافدة) لم تكن جزءاً من النسيج الاجتماعي العراقي قبل الفتح الإسلامي، فعبد الله بن وهب الراسبي (الأزدي) وزيد بن حصين الطائي، وكثيرٌ من قادة النهروان، كانوا من صلب القبائل التي قدمت مع جيوش الفتح ، بل إن هؤلاء القادة، أمثال حرقوص بن زهير السعدي، كانوا من (جيل الفتوح) الذين تشكل وعيهم في ميادين القتال (كتستر وغيرها)، مما يجعل (خروجهم) لاحقاً انعكاساً لصدمة التحول من (عقلية الغزو والتوسع) إلى (عقلية الدولة والاستقرار). لقد كان العراق بالنسبة لهم مجرد "محطة استراحة" أو قاعدة انطلاق، وليس الأرض التي استمدوا منها هويتهم الفكرية.

ثانياً: **التمركز في الأمصار كاستراتيجية صراع لا كحاضنة هوية** : تعد حالة (الأزارقة) البرهان الأقوى على أن العراق لم يكن سوى ميدان معركة، فعندما انتقل ثقل النشاط الخارجي من الكوفة والبصرة إلى مناطق الأحواز وفارس، لم

يجدوا أي حاضنة شعبية في العراق تمنعهم من المغادرة ، إن اختيارهم للتضاريس الجبلية والوعرة في الأحواز كان استراتيجية عسكرية بحتة لخدمة حرب العصابات، ولو كانت نسبة الحركات إلى مواطن نشاطها العسكري معياراً، لنسبنا الأزارقة إلى الأحواز لا إلى العراق ، إن هذا التهافت في نسبة الحركة للمكان يؤكد أن المؤرخين اعتمدوا (الجغرافيا السياسية) لتسهيل السرد، متجاهلين أن الحركة كانت دوماً في حالة تنقل وحرب، تفرضها ظروف الميدان لا جذور الانتماء.

ثالثاً: **التنوع القبلي واحتكاك الأضداد** : لم يكن العراق بعد الفتوحات كياناً متجانساً، بل كان بوتقة انصهرت فيها أضداد قبلية (تميم، بكر بن وائل، طيء، الأزد، مذحج) في رقعة جغرافية واحدة مضغوطة ، وقد ولد هذا التماس القبلي المفاجئ الشرارات الفكرية والسياسية مع الاستقرار والانفتاح العمراني ، وبدلاً من أن تُنسب هذه الظاهرة للعراق، يجب أن تُقرأ كصراع بين (ترسبات قبلية) التقت في العراق ، والدليل على ذلك أن كتب "المقالات والفرق" لم تكن تنسب الفرق إلى الأمصار، بل إلى المؤسسين (كالأزارقة لـ نافع بن الأزرق، والإباضية لـ عبد الله بن إباض) ، وتعكس هذه النسبة (الشخصية) أن الهوية الخارجية كانت قبلية وفردية في جذورها، وليست إقليمية مرتبطة بتربة العراق.

وفي الختام: من الجغرافيا إلى التاريخ الاجتماعي، فإن قراءة ظاهرة الخوارج لا ينبغي أن تقف عند حدود المكان الذي شهد أحداثهم، بل يجب أن تتجاوز ذلك إلى دراسة البنية القبلية والاجتماعية التي أسهمت في تكوينهم وانتشارهم. فالحركة الخارجية كانت إفرازًا لمرحلة تاريخية انتقالية معقدة، انتقلت فيها القبائل العربية من فضاء البادية إلى فضاء الدولة الواسعة، ووجدت نفسها أمام تحديات جديدة تتعلق بالسلطة، وإدارة الأمصار، وطبيعة العلاقة بين القبيلة والدولة. وفي ظل هذا التحول ظهرت فئات لم تستوعب بصورة صحيحة مقتضيات الدولة المركزية، فحملت معها بعض أنماط التفكير القبلي إلى المجال السياسي والديني.

لقد كان العراق بالنسبة للخوارج (ميدان الصراع) وموضع التجمع العسكري ومركز الثقل السياسي؛ ففيه ظهرت النهروان، ومنه انطلقت تحركاتهم الكبرى في الكوفة والبصرة، ثم امتدت إلى الأحواز وفارس وغيرها. غير أن هذا الدور لا يجعله موطن النشأة الأولى؛ إذ إن النظر في سير قادة الخوارج الأوائل يكشف أن جذورهم القبلية كانت مرتبطة بقبائل عربية متعددة جاءت من الجزيرة العربية واليمن، وكان لكثير منها امتداد في البيئات البدوية قبل استقرارها في الأمصار.

ومن هنا فإن الخلط بين (مكان وقوع الحدث) و(مصدر الفكرة) يؤدي إلى قراءة غير دقيقة للتاريخ؛ فوجود الخوارج في العراق لا يعني أن العراق أنشأهم،

كما أن كثرة معاركهم في الأحواز لا تجعل الأحواز موطنهم الأول، وإنما كانت هذه المناطق ساحات انتقلوا إليها بحكم الظروف السياسية والعسكرية. فالتاريخ لا يصنعه المكان وحده، بل تصنعه مجموعة من العوامل البشرية والاجتماعية والسياسية التي تجتمع في زمان معين ومكان معين.

وعليه، فإن العراق في تاريخ الخوارج كان مسرحًا واسعًا احتضن صراعاتهم وظهور فرقهم، لكنه لم يكن مولد هذه الحركة ولا مصدرها الأول؛ وإنما كان نقطة التقاء لعناصر قبلية وفكرية جاءت من بيئات مختلفة، ثم تفاعلت داخله فأنتجت واحدة من أبرز الظواهر السياسية والفكرية في التاريخ الإسلامي المبكر.

الفصل الرابع

العراق

في الأخبار النبوية

المبحث الأول
العراق في العهد النبوي (قبل الهجرة)

تمهيد:

سبق استعراض الأحاديث الواردة في العراق بيانُ أن هذا الإقليم لم يكن طارئًا في الخطاب النبوي، ولا مجهولًا عند العرب زمن البعثة، بل كان من أشهر أقاليم المشرق، وأعظمها أثرًا في الجوانب السياسية والاقتصادية والحضارية، فقد كان العراق موطن الدولة الساسانية، ومقرَّ عاصمتها، كما قامت في أطرافه إمارة المناذرة العربية التي ربطت بين جزيرة العرب وبلاد فارس، فضلًا عن الصلات التجارية والقبلية والثقافية التي جعلت أخباره متداولة بين العرب قبل الإسلام.

ولما بعث الله نبيه محمدًا ﷺ كان العراق حاضرًا في الوعي العربي، ولذلك ورد ذكره في السنة النبوية تصريحًا في عدد من الأحاديث الصحيحة، كما وردت الإشارة إليه في أحاديث أخرى تناولت فتحه، وأحواله الاقتصادية، وما سيقع فيه من أحداث مستقبلية، في سياق الإخبار بالغيب الذي أطلع الله عليه نبيه ﷺ ومن ثم فإن دراسة العراق في السنة النبوية لا تقتصر على جمع الروايات الواردة فيه، وإنما تتجاوز ذلك إلى فهم دلالاتها، وربطها بسياقها التاريخي، وبيان مراد النبي ﷺ منها في ضوء شروح أهل العلم.

وتزداد أهمية هذا المبحث في هذه الدراسة؛ لأن موضوع الكتاب يتناول دعوى نسبة الخوارج إلى العراق، وهي دعوى كثيرًا ما يُستدل عليها ببعض الأحاديث المتعلقة بالعراق أو بالمشرق، دون تمييز بين النصوص الصحيحة والضعيفة، أو بين دلالاتها الحقيقية وما حُمِّلت عليه من معانٍ ، ومن هنا كان من اللازم جمع الأحاديث التي ورد فيها ذكر العراق، ودراستها دراسة حديثية وتحليلية، مع الرجوع إلى أقوال شراح الحديث، لتمييز ما يتعلق بالبشارة، وما يتعلق بالفتن، وما هو من الإخبار عن الوقائع المستقبلية، بعيدًا عن التفسيرات المتعسفة أو الإسقاطات التاريخية غير المنضبطة.

وعليه، فإن هذا الفصل يهدف إلى استقراء النصوص النبوية التي ورد فيها ذكر العراق، وتحليلها في ضوء قواعد المحدثين وشروح الأئمة، وبيان ما تدل عليه وما لا تدل عليه، تمهيدًا للوصول إلى حكم علمي منصف في مسألة نسبة الخوارج إلى العراق، بعيدًا عن الأحكام المسبقة، ومستندًا إلى النصوص الصحيحة والفهم التاريخي السليم.

القبائل العربية :

لم يكن العراق عند بعثة النبي ﷺ إقليمًا هامشيًا أو مجهولًا في نظر العرب قبل الإسلام ، بل كان من أهم أقاليم المشرق، ومركزًا للحضارة والملك، وقلب الدولة الساسانية التي كانت تمثل، مع الدولة البيزنطية، إحدى القوتين العظميين

في العالم آنذاك ، وقد امتاز العراق بموقعه الجغرافي الذي جعله حلقة وصل بين جزيرة العرب وبلاد فارس وبلاد الشام، فضلًا عن خصوبة أرضه، وكثرة أنهاره، وازدهار مدنه، ولا سيما الحيرة والأنبار والمدائن، مما أكسبه مكانة سياسية واقتصادية كبيرة قبل الإسلام.

وقد عرف العرب العراق معرفةً وثيقة قبل البعثة النبوية، ولم يكن إقليمًا بعيدًا عن محيطهم الجغرافي أو السياسي، بل كانت تربطهم به صلاتٌ تاريخية وتجارية وقبلية وثيقة، أسهمت في ترسيخ حضوره في الوعي العربي. فمن الناحية السياسية، قامت في الحيرة إمارة المناذرة، وهي إمارة عربية اتخذها ملوك الفرس حليفًا لهم، وجعلوها خطَّ الدفاع الأول عن حدودهم الغربية، فأصبحت الحيرة من أبرز الحواضر العربية قبل الإسلام، يفد إليها الشعراء والوفود والتجار، حتى غدت أخبار ملوكها وقصورها جزءًا من الذاكرة العربية(١).

ومن الناحية القبلية، استوطنت قبائل عربية كبيرة أطراف العراق أو جاورته، مثل بكر بن وائل، وتغلب، وإياد، وعبد القيس، وكان لها احتكاك دائم بالعراق وأهله، سواء في التجارة أو في الحروب، كما ظهر ذلك في وقائع مشهورة،

---

(١) الطبري (التاريخ : ٢/١٧٠) ؛ ياقوت الحموي (البلدان /مادة الحيرة) .

كوقعة ذي قار، التي مثلت إحدى أبرز المواجهات بين العرب والفرس قبل الإسلام[1].

أسواق العراق :

أما من الناحية الاقتصادية، فقد ارتبطت جزيرة العرب بالعراق عبر طرق التجارة التي تصل الحجاز بالحيرة والأنبار ثم المدائن، وكان العراق مشهورًا بخصوبة أرضه وغزارة مياهه وكثرة إنتاجه الزراعي، ولا سيما أرض السواد، حتى صار مضرب المثل في الخصب والعمران. وقد عرفت العرب مكاييله وأوزانه، ومن أشهرها **القفيز**، وهو مكيال اشتهر في العراق قبل الإسلام، واستمر استعماله في صدر الإسلام، ولذلك ورد ذكره في الحديث النبوي الصحيح : « **يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم**»[2].

وقد حفظ الشعر الجاهلي شواهد كثيرة تدل على معرفة العرب بالعراق ومدنه، ولا سيما الحيرة والفرات ودجلة، كما أكثر الشعراء من ذكر ملوك المناذرة وقصورهم، مما يدل على أن العراق كان حاضرًا في الذاكرة الأدبية العربية قبل

---

(١) الطبري (التاريخ : ٢/ ٢١٠) .

(٢) المقدسي (أحسن التقاسيم : ١١٩) ، وسنأتي على الكلام على هذا الحديث إن شاء الله بالتفصيل .

الإسلام، ولم يكن مجرد إقليم مجاور، بل كان يمثل مركزًا حضاريًا وسياسيًا ذا تأثير في الحياة العربية، ومن أشهر شعراء الحيرة عدي بن زيد العبادي، كما أكثر النابغة الذبياني والأعشى من الإشارة إلى الحيرة وملوكها في قصائدهم(١).

وكانت قريش تمارس التجارة الخارجية قبل الإسلام، ولم تقتصر تجارتها على الشام واليمن، بل امتدت إلى العراق، ولا سيما الحيرة والأنبار، اللتين كانتا من أشهر المراكز التجارية في ذلك العصر، ويذكر الهمداني إلى الطرق البرية التي تربط نجد والحجاز بالعراق، مما يدل على انتظام حركة القوافل بين الجانبين(٢).

كما أشار جواد علي أن التجارة العربية كانت تتصل بالعراق اتصالًا وثيقًا، وأن أسواق الحيرة كانت مقصدًا للتجار العرب، وأن قريش كانت تعرف الطرق المؤدية إليها، كما كانت البضائع العراقية تصل إلى مكة، ومنها الأقمشة، والحبوب، والعطور، والمعادن(٣).

وتدل المصادر التاريخية والسيرة النبوية على أن قريشًا لم تكن تجهل العراق ولا بلاد فارس قبل البعثة النبوية، بل كانت على معرفة بأحوالهما السياسية والحضارية، ويرجع ذلك إلى ما كان بين الحجاز والعراق من صلات تجارية

---

(١) شوقي ضيف (تاريخ الأدب العربي – العصر الجاهلي : ٢٥٠ وما بعدها) .

(٢) صفة جزيرة العرب : ص٢٤٤ .

(٣) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : ٢٤٨/٧ .

وثقافية، وإلى موقع العراق بوصفه قلب الدولة الساسانية، التي كانت إحدى أعظم القوى السياسية في ذلك العصر، ومن أبرز الشواهد على هذه المعرفة قصة النضر بن الحارث بن كلدة القرشي، التي تكشف جانبًا مهمًا من اطلاع أهل مكة على أخبار العراق وملوك فارس.

أخبار العراق:

وكان النضر بن الحارث من سادات قريش، ومن أكثرهم سفرًا إلى الحيرة وبلاد فارس، حيث كان يتردد على تلك البلاد للتجارة، ويخالط أهلها، ويتعلم أخبار ملوكهم وسير أبطالهم، حتى حفظ قصص الأكاسرة، وما اشتهر في الأدب الفارسي من أخبار رستم وإسفنديار وغيرهما، فلما عاد إلى مكة وجد النبي ﷺ يتلو القرآن على الناس، ويقص عليهم أخبار الأمم السابقة، فحاول أن يصرف الناس عن سماع القرآن، فكان يجلس بعد مجلس النبي ﷺ ويقول: «أنا والله أحسن حديثًا منه، هلموا إليَّ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه»[1].

وتكشف هذه القصة عن جملة من الحقائق التاريخية المهمة:

فأولها أن قريشًا كانت على اتصال بالعراق وبلاد فارس عن طريق التجارة والأسفار، وإلا لما أمكن للنضر أن يرحل إليها ويتعلم أخبارها.

---

(١) ابن هشام (السيرة: ١/ ٣٠٠).

وثانيها أن أخبار الأكاسرة والدولة الساسانية كانت معروفة لدى أهل مكة، حتى إن النضر رأى أن قصص ملوك فارس يمكن أن تجذب انتباه قريش وتنافس ما يتلوه النبي ﷺ من القرآن.

وثالثها أن البيئة المكية لم تكن معزولة عن الأحداث الدولية، بل كانت تتابع أخبار الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية، وهو ما يفسر فهم قريش لما نزل في صدر سورة الروم من الحديث عن غلبة الروم ثم غلبتهم بعد ذلك، من غير حاجة إلى تعريفهم بتلك الدول أو ببلادها.

ومن ثم، فإن قصة النضر بن الحارث تعد شاهدًا تاريخيًا على أن العراق وبلاد فارس كانا حاضرين في الوعي المكي قبل الإسلام، وأن ذكر العراق في السنة النبوية لم يكن تعريفًا بإقليم مجهول، وإنما خطابًا لقوم عرفوا العراق، وأدركوا مكانته السياسية والاقتصادية، وكانت تصلهم أخباره عن طريق التجارة والرحلات والأسواق.

وفي السنوات التي سبقت الهجرة النبوية اشتد الصراع بين الإمبراطورية الساسانية والإمبراطورية البيزنطية، وهي الحرب التي أشار إليها القرآن الكريم في مطلع سورة الروم، قال تعالى: ﴿الٓمٓ ١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ٥﴾ [الرُّوم: ١ - ٥].

وكانت هذه الحرب من أعظم الحروب في تاريخ الشرق القديم، إذ تمكن الفرس في بدايتها من اجتياح بلاد الشام، والاستيلاء على القدس سنة (٦١٤م)، ثم السيطرة على مصر، حتى خُيِّل للناس أن الدولة البيزنطية قد أوشكت على الزوال ، وفي هذا الظرف أعلن القرآن الكريم، قبل وقوعه، أن الروم سيستعيدون قوتهم وينتصرون في مدة لا تتجاوز **بضع سنين**، وهو ما تحقق عندما قاد الإمبراطور هرقل حملاته العسكرية المضادة، وانتهت بانتصاره الحاسم على الفرس في معركة نينوى سنة (٦٢٧م)، ثم انهيار المشروع العسكري الساساني.

وتبرز أهمية هذه الحرب بالنسبة للعراق في أن أراضيه كانت المسرح الرئيس للصراع بين القوتين؛ إذ كانت المدائن عاصمة الدولة الساسانية، ومنها تُدار شؤون الإمبراطورية، كما شهدت أرض العراق وما جاورها عددًا من أهم المعارك التي حددت مصير الحرب ، وقد أفضى هذا الصراع الطويل إلى إنهاك الدولتين عسكريًا واقتصاديًا، وهو ما هيأ الظروف التاريخية لظهور الدولة الإسلامية واتساعها بعد وفاة النبي ﷺ، ففُتح العراق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم سقطت الدولة الساسانية سقوطًا نهائيًا.

سواري كسرى :

وتُعد قصة سراقة بن مالك رضي الله عنه من أبرز الشواهد التي تكشف عن معرفة العرب قبل الإسلام بالدولة الساسانية، وإدراكهم لعظمة ملك كسرى

وما اشتهرت به بلاده من الثراء والسلطان ، ولا تقتصر أهمية هذه القصة على كونها معجزة من معجزات النبي ﷺ ودليلًا من دلائل نبوته، بل تتجاوز ذلك لتُظهر أن العراق، بوصفه مقرَّ ملك الأكاسرة وعاصمة دولتهم، كان حاضرًا في الوعي العربي قبل الإسلام.

ففي أثناء هجرة النبي ﷺ من مكة إلى المدينة، خرج سراقة بن مالك – قبل أن يسلم– طمعًا في الجائزة التي أعلنتها قريش لمن يأتي بمحمد ﷺ ، فلما أدركه ساخت قوائم فرسه في الأرض، فعلم أن للنبي ﷺ شأنًا، فطلب منه الأمان، وفي ذلك الموقف قال له النبي ﷺ :« **كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى بن هرمز؟** »[1].

إن المتأمل في هذا الحديث يدرك أن النبي ﷺ لم يحتج إلى تعريف سراقة بكسرى، ولا بملكه، ولا بعظمة حليه، وإنما اكتفى بذكر اسمه، لأن كسرى كان علمًا مشهورًا عند العرب، يرمز إلى أعظم ملوك المشرق، كما كانت خزائنه وحليه مضرب المثل في الغنى والترف. ولو لم يكن العرب يعرفون مكانة كسرى، لما كان لهذا الوعد ذلك الأثر البالغ في نفس سراقة، ولما عُدَّ لبس سواريه بشارة عظيمة تستحق أن تُذكر في ذلك الظرف العصيب.

---

(١) الحاكم (المستدرك : ٣/٧) ؛ البيهقي (الكبرى : ٦/٥٨١) .

ويؤكد هذا المعنى أن العرب قبل الإسلام كانوا على صلة بالعراق وبلاد فارس عن طريق التجارة والوفود والأسواق، وكانت الحيرة، وهي عاصمة المناذرة، تمثل بوابة العرب إلى الدولة الساسانية، كما كانت أخبار الأكاسرة وقصور المدائن وقصور الحيرة تتناقلها العرب في أشعارها وأخبارها. وقد كان اسم كسرى عند العرب لقبًا لكل ملك من ملوك الفرس، كما كان اسم قيصر لقبًا لملوك الروم، مما يدل على رسوخ معرفتهم بهاتين الإمبراطوريتين.

ومن هنا يتبين أن العراق كان حاضرًا في الأحداث الكبرى التي عاصرها النبي ﷺ ، وأنه لم يكن إقليمًا مجهولًا عند العرب، بل كان معروفًا بمكانته السياسية والاقتصادية والعسكرية، ولذلك ورد ذكره في السنة النبوية تصريحًا في عدد من الأحاديث الصحيحة، كما وردت الإشارة إليه في أحاديث أخرى تناولت فتحه، وأحواله، وما سيقع فيه من أحداث مستقبلية.

ولذلك فإن دراسة العراق في السنة النبوية ينبغي أن تُفهم في ضوء هذه الخلفية التاريخية؛ إذ إن النصوص النبوية لم ترد في فراغ، وإنما جاءت في سياق واقعٍ كان العراق فيه محورًا من محاور السياسة الدولية، ومركزًا للصراع بين أعظم إمبراطوريتين في ذلك العصر، ومن هذا المنطلق يأتي هذا الفصل لاستقراء الأحاديث الواردة في العراق، ودراسة دلالاتها دراسةً حديثيةً وتاريخيةً، تمهيدًا لبحث علاقتها بموضوع الخوارج، وبيان ما تدل عليه النصوص، وما لا تدل عليه، بعيدًا عن الإسقاطات التاريخية أو الاستنتاجات التي لا يسندها الدليل.

المبحث الثاني
العراق في العهد النبوي (بعد الهجرة)

لم يكن انتقال النبي ﷺ إلى المدينة المنورة مجرد انتقال من مكة إلى مجتمع جديد، بل كان بداية مرحلة اتسعت فيها دائرة الاتصال بالعالم الخارجي، وأصبحت الدولة الإسلامية الناشئة على صلة مباشرة بالقوى والأقاليم المحيطة بجزيرة العرب، ومن أبرزها بلاد الشام والعراق وفارس. فقد انتقل المسلمون في العهد المدني من مرحلة الدعوة الفردية إلى مرحلة بناء الدولة، وأصبحوا يتعاملون مع واقع سياسي واقتصادي وعسكري أوسع من حدود الجزيرة العربية.

وكان العراق في ذلك العصر جزءًا من الدولة الساسانية، التي كانت تمثل إحدى أعظم القوى العالمية إلى جانب الدولة البيزنطية، وكانت عاصمتها المدائن في أرض العراق، ومنها تدار شؤون الإمبراطورية الفارسية. ولذلك لم يكن العراق إقليمًا مجهولًا عند المسلمين الأوائل، بل كان حاضرًا في وعيهم من خلال الأخبار التي كانت تصلهم عن الفرس، ومن خلال العلاقات التجارية والسياسية القديمة بين العرب والعراق، إضافة إلى وجود قبائل عربية كبيرة في أطرافه، مثل بكر بن وائل وتغلب وعبد القيس.

سلمان الفارسي :

لقد شهد العهد النبوي بعد الهجرة عددًا من الأحداث التي تكشف عن حضور العراق وبلاد فارس في الواقع الإسلامي المبكر؛ فمن ذلك دخول أفراد من أصول فارسية في المجتمع النبوي، ومن أبرزهم سلمان الفارسي رضي الله عنه، الذي أصبح من كبار أصحاب النبي ﷺ ، ونقل إلى المسلمين خبرة عسكرية من بيئته الفارسية في غزوة الخندق، حين أشار بحفر الخندق حول المدينة.

ويمثل إسلام سلمان الفارسي رضي الله عنه شاهدًا مهمًا على اتصال المجتمع النبوي بالعالم الفارسي، وأن بلاد فارس والعراق لم يكونا بعيدين عن البيئة العربية عند ظهور الإسلام، بل كان العرب يعرفون أخبارهما وأحوالهما، كما أن النبي ﷺ تعامل مع هذا العالم المشرقي بوصفه إقليمًا معلومًا لأصحابه، له مكانته السياسية والحضارية.

فقد كان سلمان رضي الله عنه من أهل فارس، واختلف أهل السير في تحديد موطنه، والمشهور أنه كان من أصبهان، ونشأ في بيت من بيوت المكانة، إذ كان أبوه من دهاقين قومه، أي من كبار أهل فارس وأصحاب النفوذ، ثم خرج سلمان يبحث عن الدين الحق، فتنقل بين علماء النصرانية، حتى انتهى به المطاف إلى المدينة المنورة، وكان ينتظر ظهور النبي الذي أخبره به من لقي من أهل العلم.

ولما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة، وجد سلمان رضي الله عنه علامات النبوة التي كان يعرفها من أخبار من سبقه من أهل الكتاب، فأسلم بعد قدوم النبي ﷺ إلى المدينة ، وقد روى سلمان قصة إسلامه في حديث طويل أخرجه الإمام أحمد وغيره، وفيه ذكر العلامات التي عرف بها النبي ﷺ ، ومنها أنه لا يأكل الصدقة، ويقبل الهدية، وبين كتفيه خاتم النبوة[1].

ومن هنا فإن قصة سلمان لا تمثل مجرد قصة إسلام صحابي من بلاد بعيدة، وإنما تكشف عن طبيعة المرحلة النبوية بعد الهجرة، حيث أصبح العالم المحيط بالجزيرة العربية حاضرًا في حياة المسلمين، وأصبح العراق وبلاد فارس جزءًا من دائرة المعرفة والاحتكاك السياسي والثقافي التي عرفها المجتمع الإسلامي الأول.

وتُعد غزوة الخندق (الأحزاب) من أبرز الأحداث التي تكشف عن تفاعل المجتمع النبوي مع خبرات الأمم الأخرى، فقد شهدت هذه الغزوة مشاركة سلمان الفارسي رضي الله عنه برأي عسكري مستمد من بيئته الفارسية (والتي كان العراق مسرحاً لها) ، وكان لهذا الرأي أثر كبير في حماية المدينة المنورة من جموع الأحزاب.

---

(١) ينظر: ابن هشام (السيرة النبوية : ٢/٢٢٤) ؛ البيهقي (الدلائل : ٣/٤٣٩) .

فبعد أن نقضت بعض قبائل اليهود عهدها مع النبي ﷺ ، واتفقت قريش وغطفان وعدد من القبائل العربية على غزو المدينة، خرج جيش كبير نحوها في السنة الخامسة للهجرة، وكان عددهم يقارب عشرة آلاف مقاتل، في حين كان المسلمون أقل عددًا، ولم يكن من السهل مواجهة هذا الجيش في معركة مفتوحة خارج المدينة.

فجمع النبي ﷺ أصحابه للتشاور في طريقة الدفاع، فأشار سلمان الفارسي رضي الله عنه بحفر خندق حول الجهة المكشوفة من المدينة، وقال: « يا رسول الله، إنا كنا بأرض فارس إذا حُوصرنا خندقنا علينا »(١).

فأعجب النبي ﷺ بهذا الرأي، وأمر بحفر الخندق، وشارك بنفسه مع أصحابه في العمل، فكان المسلمون يحفرون، وكان النبي ﷺ يحمل التراب معهم، حتى اكتمل الخندق، فلما قدمت الأحزاب وجدوا أمامهم مانعًا لم يكن معروفًا في حروب العرب آنذاك، فلم يستطيعوا اقتحام المدينة، وانتهت الغزوة بانسحابهم.

لما شرع النبي ﷺ وأصحابه في حفر الخندق حول المدينة، واجهتهم صخرة عظيمة في موضع من الخندق عجزوا عن كسرها، فذهبوا إلى النبي ﷺ وأخبروه

---

(١) ابن هشام (السيرة النبوية : ٢/ ٢٢٤) .

بها، فأخذ المعول ونزل إليها، فضربها ضربة فتكسرت منها قطعة، ثم ضرب الثانية، ثم الثالثة حتى انكسرت الصخرة.

وفي بعض الروايات أن النبي ﷺ قال عند ضربه الصخرة: « **الله أكبر، أُعطيت مفاتيح الشام، والله إني لأبصر قصورها الحمراء الساعة** ، ثم ضرب الثانية فقال: **الله أكبر، أُعطيت مفاتيح فارس، والله إني لأبصر قصر المدائن الأبيض ...** »[1].

وهذا الذكر النبوي للمدائن يكشف أن العراق كان حاضرًا في التصور السياسي للمسلمين الأوائل، فلم يكن إقليمًا مجهولًا أو بعيدًا عن دائرة المعرفة، بل كان معروفًا بوصفه مركزًا لأعظم قوة سياسية في المشرق آنذاك ، فالمدائن لم تكن مجرد مدينة، وإنما كانت رمزًا لملك كسرى وعظمة الدولة الساسانية، ولذلك كان ذكرها يحمل دلالة واضحة على نهاية ذلك الملك وانتقاله إلى المسلمين.

كما أن سياق الحديث يزيد هذه الدلالة وضوحًا؛ إذ لم يكن النبي ﷺ يتحدث عن أرض مجهولة، وإنما يخاطب أصحابه بأمر يعرفون معناه، فذكر فتح فارس وقصر المدائن كان مفهومًا لديهم، كما كان ذكر كسرى وسواريه مفهومًا عند العرب قبل الإسلام. وهذا يؤكد أن العراق كان حاضرًا في الوعي العربي

---

(١) أحمد (١٨٦٩٤) .

والإسلامي من خلال شهرته السياسية، وعلاقاته التجارية، واتصاله بالعالم العربي قبل الإسلام.

ومن هنا فإن قصة الحجر في الخندق تمثل حلقة مهمة في بيان علاقة السنة النبوية بالعراق؛ فهي تجمع بين الإخبار بالغيب، وبين الإشارة إلى واقع جغرافي وسياسي معروف، حيث جعل النبي ﷺ فتح المدائن وفارس جزءًا من مستقبل الدولة الإسلامية، قبل أن تتحقق تلك البشارة في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه بعد فتح العراق وسقوط الدولة الساسانية.

رسالة النبي ﷺ لكسرى :

كان العراق قبل الإسلام وفي صدر الإسلام من أهم أقاليم العالم القديم؛ إذ لم يكن مجرد إقليم جغرافي، بل كان مركزًا سياسيًا واقتصاديًا وحضاريًا للدولة الساسانية، التي كانت إحدى أعظم الإمبراطوريات في ذلك العصر. وكانت مدينة المدائن في العراق عاصمة كسرى ومقر ملكه، ومنها تُدار شؤون الدولة الفارسية الواسعة التي امتدت من العراق إلى فارس وأقاليم أخرى.

ولهذا لم يكن ذكر كسرى وملكه غريبًا على العرب، فقد كانت أخبار الدولة الساسانية متداولة بينهم، وكانت الحيرة في العراق تمثل حلقة وصل مهمة بين العرب والفرس، كما كانت القبائل العربية المتاخمة للعراق على اتصال سياسي

وتجاري بهذه الدولة ؛ ولذلك جاء ذكر كسرى في السنة النبوية ضمن سياق مفهوم للمخاطبين، بوصفه رمزًا للسلطة الفارسية التي كان العراق مركزها.

وبعد أن استقر أمر المسلمين في المدينة، وبعد صلح الحديبية في السنة السادسة للهجرة، بدأ النبي ﷺ بمكاتبة ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، فبعث رسله إلى قيصر الروم، وكسرى فارس، والمقوقس عظيم القبط، وغيرهم.

وكان ممن أرسلهم النبي ﷺ إلى كسرى عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه، ومن المرجح أنه سلك طريق التجارة القديم من الحجاز إلى العراق، وهو الطريق الذي كانت تسلكه قريش في رحلاتها إلى الشام والعراق. وحمل إليه كتاب النبي ق . فلما وصل الكتاب إلى كسرى، استكبر ومزقه فغضب النبي ﷺ وقال: « **مزق الله ملكه** »[1] ، وقد تحقق ذلك بعد سنوات، فسقط ملك الأكاسرة، وفُتحت بلاد فارس والعراق في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وتدل رسالة النبي ﷺ إلى كسرى على جملة من المعاني المهمة المتعلقة بحضور العراق في الوعي النبوي والسياسي في العهد المدني؛ إذ لم يبعث النبي ﷺ كتابه إلى حاكم مجهول أو إلى بلاد بعيدة لا يعرفها أصحابه، وإنما خاطب كسرى، وهو الاسم الذي كان يدل عند العرب على أعظم ملوك المشرق،

---

(١) البخاري (٤٤٢٤) .

وكانت عاصمته المدائن في العراق. وهذا يدل على أن العراق لم يكن إقليمًا غائبًا عن معرفة العرب والمسلمين الأوائل، بل كان حاضرًا بوصفه مركزًا سياسيًا وحضاريًا لدولة عظيمة.

كما تكشف الرسالة عن أن العراق كان مركز القوة الفارسية في ذلك العصر؛ فالدولة التي خاطب النبي ﷺ ملكها لم تكن مجرد دولة تقع في فارس، بل كانت تعتمد على العراق بوصفه قلبها الإداري والعسكري، وكانت المدائن مقر كسرى، وفيها قصوره وخزائنه ومظاهر عظمة ملكه. ولذلك فإن مخاطبة النبي ﷺ لكسرى كانت في حقيقتها اتصالًا بأعلى سلطة سياسية في المشرق، كانت ترتبط بالعراق ارتباطًا وثيقًا.

ومن جهة أخرى، فإن ذكر كسرى في السنة النبوية يدل على معرفة العرب بأحوال العراق والدولة الفارسية قبل الإسلام؛ فقد كانت أخبار الفرس وملوكهم متداولة بين العرب، كما ظهر ذلك في قصة النضر بن الحارث الذي كان يحدث قريشًا بأخبار رستم وإسفنديار وملوك فارس، كما ظهر في بشارة النبي ﷺ لسراقة بن مالك رضي الله عنه بلبس سواري كسرى، مما يدل على أن اسم كسرى وملكه وثروته كانت معروفة في البيئة العربية.

ولم تكن رسالة النبي ﷺ إلى كسرى مجرد خطاب دعوي، بل كانت تحمل في مضمونها إشارة إلى مستقبل الصراع بين الإسلام والدولة الساسانية؛ فقد أخبر النبي ﷺ بزوال ملك كسرى، ودعا عليه بعد أن مزق كتابه، فقال» :مزق

الله ملكه»، ثم تحقق ذلك بعد وفاة النبي ﷺ بسنوات، عندما توجه المسلمون إلى العراق، فكانت معارك القادسية وفتح المدائن سببًا في سقوط الحكم الساساني في العراق وانتهاء سلطان الأكاسرة.

وكان فتح المدائن خاصة حدثًا ذا دلالة رمزية كبيرة؛ لأنها لم تكن مدينة عادية، بل كانت عاصمة الأكاسرة ومقر الحكم الساساني، ومظهرًا لعظمة الدولة الفارسية وقوتها السياسية والحضارية. ولذلك كان سقوطها تحقيقًا لما أخبر به النبي ﷺ من زوال ملك كسرى، وانتقال تلك البلاد من سلطان الفرس إلى دولة الإسلام.

المبحث الثالث
التصريح بلفظ العراق بالسنة

بعد أن ظهر من خلال المباحث السابقة أن العراق كان حاضرًا في الوعي العربي قبل الإسلام، وأنه كان معروفًا في العهد النبوي من خلال الاتصال بالدولة الساسانية وذكر كسرى والمدائن وفارس، فإن السنة النبوية تضمنت نصوصًا ورد فيها ذكر العراق صراحة، أو أشارت إليه بأوصاف لا تنطبق إلا عليه.

وهذا يدل على أن العراق لم يكن مجرد إقليم بعيد عن جزيرة العرب، وإنما كان بلدًا معلومًا عند الصحابة، حاضرًا في الخطاب النبوي، له مكانته الجغرافية والسياسية والاقتصادية. فقد ورد ذكره في أحاديث تتعلق بأحواله الاقتصادية، وما يقع فيه من أحداث وفتن، كما ورد ذكر بعض مناطقه وصفاته التي عُرفت بها عند العرب والمسلمين.

ومن أهمية دراسة هذه الأحاديث أنها تكشف عن طبيعة العلاقة بين السنة النبوية والواقع الجغرافي والسياسي للعالم الإسلامي في القرن الأول الهجري؛ فالنبي ﷺ كان يخاطب أصحابه بأمور يفهمونها، وكانت أسماء الأقاليم والبلدان الكبرى معروفة لديهم، ومن بينها العراق الذي كان من أهم أقاليم المشرق.

كما أن دراسة أحاديث العراق تحتاج إلى منهج يجمع بين التخريج الحديثي والتحقيق التاريخي والجغرافي؛ إذ لا يكفي مجرد ورود اسم العراق في الحديث، بل لا بد من النظر في صحة الإسناد، وفهم مراد النص، ومعرفة الظروف التاريخية التي ورد فيها.

حديث الحصار :

عند تتبع الأحاديث النبوية الواردة في شأن العراق، يظهر أن التصريح باسم العراق في الأحاديث المرفوعة إلى النبي ﷺ قليل جدًا، بل لا يُعرف حديث نبوي ثابت الإسناد ورد فيه اسم العراق صراحة إلا حديث واحد، وهو حديث : « **يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم**» .

أما كثير من الأحاديث التي جرى ربطها بالعراق، فهي لم تذكره باسمه، وإنما وقع الاجتهاد في حملها عليه بسبب أوصاف جغرافية أو سياسية وردت فيها، كالأحاديث التي ذكرت المشرق، أو الفتن، أو بعض المواضع التي اختلف العلماء في تحديدها ؛ ولذلك ينبغي التفريق بين ما ورد فيه التصريح بالعراق، وبين ما فُسِّر بأنه متعلق به اعتمادًا على القرائن.

والحديث المشار إليه جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « **يُوشِكُ أَهْلُ الْعِرَاقِ أَنْ لَا يُجْبَى إِلَيْهِمْ قَفِيزٌ وَلَا دِرْهَمٌ**»

قُلْنَا: مِنْ أَيْنَ ذَاكَ؟ قَالَ : « **مِنْ قِبَلِ الْعَجَمِ، يَمْنَعُونَ ذَلِكَ**» .. الحديث ، ثم ذكر الشام ومصر(١) .

لم يكن ذكر العراق في حديث النبي ﷺ في هذا الحديث الشريف ذكرًا عابرًا، وإنما جاء مرتبطًا بمكانة هذا الإقليم وأهميته الاقتصادية والسياسية؛ فالعراق كان من أشهر بلاد العالم القديم، وكان مركزًا للحضارة الساسانية قبل الإسلام، ثم أصبح بعد الفتح الإسلامي من أعظم أمصار الدولة الإسلامية، وأغزرها خراجًا، وأكثرها ارتباطًا بالزراعة والمال.

ولهذا اهتم شراح الحديث ببيان سبب تخصيص العراق بالذكر، فأوضحوا أن النبي ﷺ ذكره لما كان له من منزلة خاصة في موارد الدولة وأموالها. قال القاضي عياض رحمه الله عند شرحه لهذا الحديث إن فيه علامة من علامات النبوة، إذ أخبر النبي ﷺ عن أمر سيقع في المستقبل، ووجه تخصيص العراق أن هذه البلاد كانت من أعظم بلاد الخراج وأكثرها أموالًا، فكان انقطاع ما يُجبى منها أمرًا ظاهر الأثر.

وبيّن الإمام النووي رحمه الله معنى قوله ﷺ : «لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم» ، فقال إن المراد انقطاع ما كان يؤخذ من أهل العراق من الخراج والأموال بسبب منع من يمنع ذلك ، وأشار إلى أن سبب ذلك يكون بسبب غلبة

---

(١) مسلم ، كتاب الفتن ، (٢٨٩٦) .

قوم أو وقوع اضطراب يمنع وصول الأموال، وهو تفسير يبين أن الحديث مرتبط بالأحوال السياسية التي تؤثر في النظام المالي للدولة[1].

وأشار الإمام القرطبي رحمه الله إلى الحكمة من تخصيص العراق بالذكر، فذكر أن العراق اختص بكثرة الخراج وعظم ما كان يحمل منه إلى بيت المال، وذلك لما امتازت به أرضه من الخصوبة وكثرة الزراعة، ولا سيما أرض السواد التي كانت من أغنى مناطق الدولة الإسلامية من جهة الإنتاج الزراعي والموارد المالية[2].

كما أن الحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله أشار إلى مكانة العراق في التاريخ الإسلامي، فكان العراق من البلاد التي اجتمع فيها الملك والعلم والمال، وكان في فترات متعددة مركز الخلافة ومقر إدارة الدولة، كما كان من أهم بلاد الخراج، ولذلك كان ذكر ما يصيبه من انقطاع الموارد مناسبًا لمكانته[3].

ويتضح من كلام هؤلاء العلماء أن ذكر العراق في الحديث له دلالات متعددة؛ فهو يدل أولًا على أن العراق كان بلدًا معروفًا ومحددًا في الخطاب النبوي، ويدل ثانيًا على مكانته الاقتصادية؛ لأن النبي ﷺ عبّر عن انقطاع

---

(١) شرح صحيح مسلم : ٢٠/١٨ .

(٢) المفهم : ٧٠٦/٧ .

(٣) فتح الباري : ٢٣٣/٦ .

موارده بذكر القفيز والدرهم، وهما يمثلان جانبي الثروة فيه: الإنتاج الزراعي والمال النقدي.

كما أن لفظ (**قفيز**) له دلالة خاصة؛ لأنه كان من المكاييل المعروفة في العراق، وكان مرتبطًا بقياس الحبوب والمحاصيل الزراعية، مما يناسب طبيعة العراق الزراعية، أما ذكر الدرهم فيشير إلى الأموال التي كانت تُجبى من هذه البلاد ضمن نظام الخراج.

ومن هنا فإن تخصيص العراق في هذا الحديث يكشف عن حضوره في الوعي النبوي من جهة مكانته الاقتصادية والسياسية، فلم يذكر النبي ﷺ العراق بوصفه أرضًا بعيدة مجهولة، بل بوصفه إقليمًا له أثر كبير في حياة الدولة، حتى إن تغير أحواله الاقتصادية وانقطاع خراجه كان أمرًا يستحق التنبيه والإخبار عنه.

وهذا يجعل هذا الحديث النبوي الصحيح من أهم النصوص التي ورد فيها ذكر العراق صراحة؛ لأنه يجمع بين الإخبار عن المستقبل، وبيان مكانة بلد كان معروفًا عند العرب والمسلمين بوصفه مركزًا للزراعة والثروة والخراج.

حديث الفتنة :

بعد أن تبين في المبحث السابق أن حديث : « **يوشك أهل العراق أن لا يُجبى إليهم قفيز ولا درهم** » من الأحاديث التي ورد فيها ذكر العراق صريحًا وثبتت

روايته في صحيح مسلم، فإن من المهم عند دراسة النصوص المتعلقة بالعراق في السنة النبوية أن ننتقل إلى الأحاديث التي نُسب إليها ذكر العراق، ولكنها تحتاج إلى مزيد من التحقيق من جهة ألفاظها وثبوتها.

ومن أشهر هذه الأحاديث ما يُتداول بلفظ : «وعراقنا؟» ضمن حديث الدعاء للشام واليمن، حيث يُروى أن الصحابة قالوا للنبي ﷺ :وعراقنا؟، فأجاب ﷺ : هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان، وقد اشتهر هذا اللفظ عند بعض المصنفين والباحثين في موضوع الفتن، وجُعل من النصوص الواردة في شأن العراق.

غير أن المنهج الحديثي يقتضي قبل الاستدلال بهذا النص النظر في أصل الرواية، ومقارنة ألفاظ طرق الحديث، والتمييز بين ما ثبت عن النبي ﷺ بلفظه، وبين ما وقع فيه من تفسير أو نقل بالمعنى أو تعيين لبعض المواضع، فالأحاديث المتعلقة بالفتن خاصة تحتاج إلى عناية كبيرة؛ لكثرة ما وقع فيها من الاختلاف في الألفاظ وتحديد البلدان المقصودة.

ومن هنا تأتي أهمية دراسة هذا الحديث؛ إذ لا يكفي مجرد تداول لفظ (عراقنا) للحكم بأنه حديث ثابت صُرّح فيه بالعراق، بل لا بد من الرجوع إلى مصادر السنة الأصلية، وبيان اللفظ المحفوظ في الروايات الصحيحة، ثم دراسة أقوال العلماء في تحديد المقصود بالمكان المذكور في الحديث.

ورد حديث الدعاء للشام واليمن وما يتعلق بجهة المشرق من عدة طرق، وأشهر ألفاظه ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، قال: قال النبي ﷺ: «**اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي شَامِنَا، اللَّهُمَّ بَارِكْ لَنَا فِي يَمَنِنَا**» ، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا؟قال : « **هُنَاكَ الزَّلَازِلُ وَالْفِتَنُ، وَبِهَا يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ** »[1] .

وقد جاءت هذه اللفظة (ونجدنا) عند البخاري من طريق : الليث بن سعد عن نافع – مولى ابن عمر – عن ابن عمر رضي الله عنهما ، وأخرجه أحمد وأبي يعلى من طريق ابن عون عن نافع[2] ، وأخرجه البخاري أيضاً من طريق حسين ابن الحسن ابن بشر المعروف بابن العريان ، صاحب ابن عون ومن أوثق أصحابه قال أحمد بن حنبل : « الحسين بن الحسن من أصحاب ابن عون، من المعدودين من الثقات المأمونين، وابن مهدي كان دلَّهم عليه، وكان يحفظ عن ابن عون، وكان حسن الهيئة، ما علمته إلا ثقة [3] ، كما رواه أزهر بن سعيد عن ابن عون باللفظ نفسه عند البخاري أيضاً [4].

(١) البخاري ، كتاب الفتن ، باب قول النبي ﷺ : الفتنة من المشرق ، رقم (٧٠٩٤) .

(٢) أحمد (٥٩٨٧) ؛ أبو يعلى (٧٨) .

(٣) المزي (تهذيب الكمال : ٦/ ٣٦٤) .

(٤) رقم (٧٠٩٤) .

أما لفظ : (وعراقنا) فقد تفرد بها عبيد الله بن عبد الله بن العون ، وهي أقل ما يقال عنها أنها شاذة ، إذ خالف الثقات ممكن روى هذا الحديث ، فأقل ما يقال عن هذا الحديث أنه شاذ ، إذ خاف فيه عبيد الله بن عبد الله بن عون كل من :

١. سعيد بن أبي أيوب المصري (أحمد : ٥٦٤٢) .

٢. أبو بكر أزهر بن سعد السمان (أحمد : ٥٩٨٧) .

٣. حماد بن زيد (أحمد ٦٠٦٤) .

وقال خالف عبيد الله بن عبد الله بن عون هنا هؤلاء الثقات ، فروايته شاذة ، والشاذ عن المحدثين – كما قال الحافظ ابن حجر : إذا خالف الراوي من هو أرجح منه في الضبط أو العدد أو غير ذلك من وجوه الترجيح، فالرواية الراجحة تسمى المحفوظة، والمخالفة الشاذة[1].

(١) نزهة النظر : ٧١ .

المبحث الرابع
مواقيت الحج هي الفصل

تُعدُّ المواقيت المكانية من الأحكام التي شرعها النبي صلى الله عليه وسلم لضبط ابتداء النسك، بحيث لا يتجاوزها من أراد الحج أو العمرة إلا مُحرِمًا، وقد جاءت السنة النبوية بتحديد مواقيت متعددة بحسب الجهات التي يقدم منها الحجاج والمعتمرون إلى مكة، ومن هذه المواقيت ذات عِرْق، وهو ميقات أهل العراق، وقرن المنازل، وهو ميقات أهل نجد.

وتكتسب دراسة هذين الميقاتين أهمية خاصة في البحث في مدلول العراق ونجد في النصوص النبوية؛ إذ إن تحديد المواقيت لم يكن أمرًا عارضًا أو اعتباطيًا، وإنما جاء مرتبطًا بالجهات التي كان يفد منها الناس إلى مكة، وبالطرق التي يسلكونها في قدومهم للحج والعمرة. ومن ثم فإن ورود العراق ونجد في باب المواقيت يكشف عن تمييز جغرافي واضح بين الجهتين؛ فقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم لأهل نجد ميقاتًا هو قرن المنازل، ولأهل العراق ميقاتًا هو ذات عِرْق، مما يدل على أن القادمين من هاتين الجهتين كانوا يُعرفون بجهتين وطريقين متميزين في القدوم إلى مكة.

وهذا الفرق الجغرافي بين جهة نجد وجهة العراق له أهمية بالغة في موضوع البحث؛ إذ سنأتي لاحقًا إلى بيان الفارق بوضوح بين من كان يأتي إلى مكة للحج من جهة نجد وبين من كان يأتي إليها من جهة العراق، وما يترتب على ذلك من دلالة في تحديد المراد بهذين الاسمين في النصوص النبوية. ولذلك فإن دراسة المواقيت لا تقتصر على بيان الحكم الفقهي المتعلق بالإحرام، وإنما يمكن أن تسهم كذلك في الكشف عن التصور الجغرافي للجهات والأقاليم في العهد النبوي، وتساعد في فهم الاستعمال المبكر لاسمي العراق ونجد، بعيدًا عن إسقاط الحدود والتقسيمات الجغرافية المتأخرة على النصوص القديمة.

قرن المنزل ميقات أهل نجد :

يُعدُّ قرن المنازل من المواضع الجغرافية المرتبطة بالمواقيت المكانية التي حدَّدها النبي صلى الله عليه وسلم للحجاج والمعتمرين، وقد اعتنى الفقهاء والجغرافيون ببيان اسمه وموقعه وصلته بجهة نجد. فقد ضبط النووي اسمه بـ«قَرْنُ المنازل»، وذكر أنه يقع على نحو مرحلتين من مكة، وأنه من أقرب المواقيت إليها[١].

(١) شرح مسلم: ٨/٨١.

وعرَّفه القاضي عياض بأنه : « ميقات أهل نجد تلقاء مكة» ، ونقل عنه ابن حجر في فتح الباري، كما أثبت ياقوت الحموي موضعه في معجم البلدان، ونقل أنه ميقات أهل نجد من جهة مكة [١].

ويُستفاد من مجموع هذه النصوص أن قرن المنازل موضع معروف شرق مكة، ارتبط بطريق القادمين من جهة نجد، وجُعل ميقاتًا لهم، وهو ما يجعل تحديد موقعه ووصف الجغرافيين والفقهاء له ذا أهمية في تحرير مدلول «نجد» في النصوص النبوية.

وقد ثبت في الصحيح من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم حدَّد المواقيت المكانية للحجاج والمعتمرين بحسب الجهات التي يقدمون منها إلى مكة، فقال :« وَقَّتَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لأهلِ المدينةِ ذا الحُليفةِ، ولأهلِ الشامِ الجُحفةَ، ولأهلِ نجدٍ قَرْنَ المنازلِ، ... ثم قال ﷺ : « **فَهُنَّ لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ، مِمَّنْ أَرَادَ الحَجَّ وَالعُمْرَةَ**»[٢] .

---

(١) معجم البلدان : ٤/ ٣٣٢ .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الحج، باب مواقيت أهل المدينة والشام ونجد واليمن، حديث رقم (١٥٢٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الحج، باب مواقيت الحج والعمرة، حديث رقم(١١٨١) .

ويُستفاد من هذا الحديث أن قرن المنازل هو الميقات الذي عيَّنه النبي صلى الله عليه وسلم للجهة التي عُرفت في عصره باسم (نجد)، وأن تسمية الميقات بأهل نجد مرتبطة بالجهة التي كانوا يقدمون منها إلى مكة، لا بمجرد الانتساب إلى موضع محدود بالمعنى الإداري المتأخر ، ويؤكد ذلك تتمة الحديث؛ إذ جعل النبي صلى الله عليه وسلم الحكم متعلقًا بالمرور بالميقات، فقال : « **وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ**» ، مما يدل على أن مناط الحكم هو جهة القدوم والطريق المؤدي إلى مكة لمن أراد الحج أو العمرة.

ومن هنا تبرز أهمية الوقوف على مدلول لفظ (نجد) في هذا الحديث؛ إذ إن اللفظ في الاستعمال العربي والجغرافي القديم لا يدل بالضرورة على إقليم واحد ذي حدود ثابتة، وإنما استُعمل في الأصل للدلالة على الأرض المرتفعة في مقابل الأرض المنخفضة، وهي تهامة ، ولذلك فإن تحديد المراد بـ«نجد» في حديث المواقيت لا يصح أن يُبنى على المفهوم الإداري الحديث لهذا الاسم، بل ينبغي الرجوع إلى استعمال الجغرافيين واللغويين وشُرَّاح الحديث للفظ، وإلى موقع قرن المنازل بالنسبة إلى مكة والجهات التي كان يفد منها الحجاج.

وقد نص الحافظ ابن حجر العسقلاني على هذا المعنى عند شرحه لحديث المواقيت، فقال :« أما نجد فهو كل مكان مرتفع، وهو اسم لعشرة مواضع،

والمراد منها هنا التي أعلاها تهامة واليمن، وأسفلها الشام والعراق، ثم ذكر أن قرن المنازل يقع من جهة المشرق، وأنه بينه وبين مكة مرحلتان(١).

وهذا النص من الحافظ ابن حجر مهم في تحرير مدلول «نجد»؛ لأنه يبين أن لفظ نجد في الحديث ليس اسمًا لمدينة بعينها، ولا يلزم أن يكون مطابقًا لحدود إقليم سياسي متأخر، وإنما المراد به الجهة الجغرافية التي عُرفت بهذا الاسم، والتي جعل النبي صلى الله عليه وسلم ميقات أهلها قرن المنازل، وبذلك يتبين أن تحديد الميقات يمثل قرينة جغرافية مهمة في فهم دلالة الأسماء الواردة في النصوص النبوية؛ إذ إن النبي صلى الله عليه وسلم جعل لكل جهة من جهات القدوم إلى مكة ميقاتًا خاصًا بها.

وعليه، فإن النصوص المتعلقة بالمواقيت تقدم تمييزًا جغرافيًا ظاهرًا بين جهة نجد وجهة العراق؛ فأهل نجد الذين يقدمون إلى مكة من جهتهم جعل ميقاتهم قرن المنازل، في حين أن القادمين من جهة العراق كان طريقهم يقتضي ميقاتًا آخر هو ذات عِرْق .وسيكون لهذا التفريق أهمية خاصة في موضع لاحق من البحث؛ إذ سنبين من خلاله أن إطلاق اسم نجد على جهة، واسم العراق على جهة أخرى، في النصوص المتعلقة بالقدوم إلى مكة، يكشف عن تمييز جغرافي بين

---

(١) فتح الباري: ٣/٣٨٩ .

الجهتين ينبغي مراعاته عند تفسير الأحاديث التي ورد فيها ذكر هذين الاسمين، ولا سيما الأحاديث التي تتعلق بالفتن وأشراط الساعة.

ومن ثم، فإن دراسة ميقات قرن المنازل لا تقتصر على بيان حكم فقهي متعلق بالإحرام، وإنما تكشف كذلك عن جانب من التقسيم الجغرافي للجهات في التصور الإسلامي المبكر؛ إذ يظهر من النص النبوي أن «نجد» كانت جهة معروفة لها طريقها إلى مكة وميقاتها المحدد، كما كان للعراق جهة طريق أخرى وميقات آخر. وهذا التمييز سيكون أساسًا مهمًا عند دراسة مدلول «نجد» و«العراق» في النصوص النبوية الأخرى.

ذات عرق ميقات أهل العراق :

تُعدُّ ذات عِرْق من المواضع الجغرافية المشهورة في طريق مكة، وقد اكتسبت أهميتها من كونها ميقاتًا لأهل العراق، ولذلك اعتنى بها المحدثون والفقهاء وأهل اللغة والجغرافيا بالضبط والتعريف وتحديد موقعها.

عرّف أهل اللغة: (ذات عِرق) بأنه منزل معروف من منازل الحاج، يحرم أهل العراق بالحج منه، وبيّن سبب تسميتها، فقال: « سُمِّي به لأن فيه عِرْقًا وهو الجبل الصغير» [1].

(١) لسان العرب (مادة عرق) .

وقال الحافظ ابن حجر : « ذات عِرْق بكسر العين وسكون الراء بعدها قاف، سُمِّي بذلك؛ لأن فيه عِرْقًا، وهو الجبل الصغير، وهي أرض سبخة تنبت الطرفاء، بينها وبين مكة مرحلتان، والمسافة اثنان وأربعون ميلًا، وهو الحد الفاصل بين نجد وتهامة »(١).

وقد العلماء في ذات عرق هل صار ميقاتاً لأهل العراق بتوقيت النبي ﷺ أم باجتهاد عمر بن الخطاب ﷺ على قولين:

القول الأول: أن توقيته ثابت عن النبي ﷺ ، وهو مذهب عطاء وعروة بن الزبير، وبه قال الجمهور من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة والظاهرية.

القول الثاني : أن توقيته ثابت باجتهاد عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وهو مروي عن طاووس وجابر بن يزيد وابن سيرين وهو المنصوص عن مالك والشافعي وإشار إليه أحمد في رواية(٢) .

وقد استدل القائلون بأن ذات عرق صارت ميقاتاً لأهل العراق بتوقيت النبي ﷺ بالأحاديث الآتية :

١. عن أبي الزبير : أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل عن المُهَلِّ؟ قال: أحسبه يريد النبي ﷺ فقال: مهل أهل المدينة ذو الحليفة والطريق الآخر الجحفة، ومهل

---

(١) الفتح : ٣/٣٨٩ .

(٢) د. سليمان الملحم (ذات عرق : ص٩٣) .

أهل العراق من ذات عرق، ومهل أهل نجد من قرن، ومهل أهل اليمن من يلملم[1].

٢. عن أم المؤمنين عائشة: أن رسولَ الله ﷺ وقتَ لأهلِ العِراقِ ذاتَ عِرْقٍ[2].

٣. عن الحارثِ بنَ عمرو السَّهْميَّ حَدَّثه قال: أتيتُ رسولَ الله – صلَّى الله عليه وسلم – وهو بمنى أو بعَرَفاتٍ، وقد أطافَ به الناسُ، قال: فتَجيءُ الأعراب فإذا رأَوا وَجْهَهُ ، قالوا: هذا وَجْهٌ مُبارَكٌ، قال: ووَقَّتَ ذَاتَ عِرْقٍ لأهْلِ العِرَاقِ[3] .

٤. عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه وقت لأهل العراق ذات عرق»[4].

قال الحافظ ابن حجر : « وهذا يدل على أن للحديث أصلا ، فلعل من قال إنه غير منصوص لم يبلغه أو رأى ضعف الحديث باعتبار أن كل طريق لا يخلو عن مقال ، ولهذا قال ابن خزيمة :رويت في ذات عرق أخبار لا يثبت شيء منها

---

(١) مسلم (١١٨٣) ؛ وأحمد (١٤٥٧٢) ؛ وابن ماجه (٢٩١٥) .

(٢) أبو داود (١٧٣٩) ؛ والنسائي (الكبرى ، رقم ٣٦١٩) ، قال شيخ الإسلام : « إسناده جيد » . شرح العمدة : ٣٠٦/١ .

(٣) أبو داود (١٧٤٢) ، وحسنه الألباني .

(٤) أحمد (٦٦٩٧) ؛ الدارقطني (٢٤٩٩) .

عند أهل الحديث ، وقال بن المنذر لم نجد في ذات عرق حديثا ثابتا انتهى لكن الحديث بمجموع الطرق يقوى كما ذكرنا ، وأما إعلال من أعله بأن العراق لم تكن فتحت يومئذ ، فقال ابن عبد البر : هي غفلة ؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم وقت المواقيت لأهل النواحي قبل الفتوح ، لكنه علم أنها ستفتح ، فلا فرق في ذلك بين الشام والعراق »[1].

واستدل أصحاب القول الثاني ، بما ثبت عن ابن عمر رضي الله عنهما في الحديث السابق أن سائلاً سأله عن العراق فقال: «لم يكن عراق يومئذ»[2].

قال الحافظ ابن حجر : « لم يكن عراق يومئذ أي بأيدي المسلمين فإن بلاد العراق كلها في ذلك الوقت كانت بأيدي كسرى وعماله من الفرس والعرب فكأنه قال لم يكن أهل العراق مسلمين حينئذ حتى يوقت لهم ويعكر على هذا الجواب ذكر أهل الشام فلعل مراد بن عمر نفي العراقين وهما المصران المشهوران الكوفة والبصرة وكل منهما إنما صار مصرا جامعا بعد فتح المسلمين بلاد الفرس »[3].

---

(١) فتح الباري (٣/ ٣٩٠) .

(٢) البخاري (٧٣٤٤) .

(٣) الفتح : ٣١٢/١٣ .

قال الطحاوي : « فقال قائل: وكيف يجوز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وقت لأهل العراق يومئذ ما وقت، والعراق إنما كانت بعده؟ قيل له: كما وقت لأهل الشام ما وقت، والشام إنما فتحت بعده , فإن كان يريد بما وقت لأهل الشام من كان في الناحية التي افتتحت حينئذ من قبل الشام فكذلك يريد بما وقت لأهل العراق من كان في الناحية التي افتتحت حينئذ من قبل العراق مثل جبل طيئ ونواحيها، وإن كان ما وقت لأهل الشام إنما هو لما علم بالوحي أن الشام ستكون دار إسلام، فكذلك ما وقت لأهل العراق إنما هو لما علم بالوحي أن العراق ستكون دار إسلام، فإنه قد كان صلى الله عليه وسلم ذكر ما سيفعله أهل العراق في زكواتهم مع ذكره ما سيفعله أهل الشام في زكواتهم »[1].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : « وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم، والله أعلم، وقت المواقيت ثلاث طبقات، فوقت أولا ثلاث مواقيت فلما فتحت اليمن وقت لها، ثم وقت للعراق »[2].

---

(١) شرح معاني الآثار : ١١٩/٢ .

(٢) شرح العمدة : ٣٠٣/١ .

وقال ابن جماعة : « ويحمل تحديد عمر ا باجتهاده على أنه لم يبلغه تحديد النبي ﷺ ، فحدد باجتهاده فوافق النص ، وقد نزل على وفق قوله وإشارته القرآن العزيز »[1].

والذي يظهر والله أعلم أن توقيت ذات عرق ثابت بنص النبي ﷺ ، ثم سئل عمر ﷺ من أهل الكوفة والبصرة بعد فتحهما، وكان غير عالم بتوقيت النبي ﷺ فاجتهد فيما لا يعلم فيه سنة فوافق السنة، وقد كان ق محدثاً ملهماً موفقاً، روى البخاري من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: «لقد كان فيمن قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر »[2].

يتبين من مجموع النصوص والآثار أن ذات عرق هي ميقات أهل العراق، **وأن** قرن المنازل هو ميقات أهل نجد، وقد ثبت أصل قرن المنازل بنصوص صحيحة صريحة عن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهم، وأجمع أهل العلم على كونه ميقات أهل نجد.

أما ذات عرق، فقد ثبت كونها ميقاتًا لأهل العراق من طرق متعددة، منها حديث عائشة رضي الله عنها عند النسائي، كما ثبت في صحيح البخاري حديث

---

(١) هداية السالك : ٢/ ٥٨٠ .

(٢) البخاري (٣٦٨٩) .

ابن عمر الذي يبين أن عمر رضي الله عنه حدها لأهل العراق باعتبار محاذاتها لقرن. ولذلك وقع خلاف بين العلماء في كون توقيتها نصًا نبويًا – وهو الذي ترجح عندنا – أو اجتهادًا من عمر رضي الله عنه، مع استقرار العمل الفقهي على أنها ميقات أهل العراق.

كما يتضح أن المراد بأهل العراق في باب المواقيت أوسع من مجرد سكان حدود سياسية معاصرة؛ فالاعتبار في أحكام المواقيت بالجهة والطريق، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح إن هذه المواقيت «**لَهُنَّ وَلِمَنْ أَتَى عَلَيْهِنَّ مِنْ غَيْرِ أَهْلِهِنَّ**» .

وبناءً على ذلك، فإن دراسة ميقاتي العراق ونجد تقدم قرينة جغرافية مهمة في دراسة الأسماء الواردة في الأحاديث النبوية، وتؤكد ضرورة الرجوع إلى الاستعمال الجغرافي القديم للأسماء عند تفسير النصوص، وعدم إسقاط التقسيمات والحدود السياسية المتأخرة عليها دون دليل. كما أن اختلاف الميقات بين الجهتين، فجُعل لأهل العراق ذات عِرْق، ولأهل نجد قرن المنازل، يدل على وجود تمايز جغرافي واضح بين الجهتين، ويؤكد أن العراق في التصور الجغرافي للنصوص الإسلامية يختلف عن نجد، ولا يصح حمل أحد الاسمين على الآخر أو اعتبارهما دالين على جهة جغرافية واحدة.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

بعد هذه الدراسة التي تناولت قضية »هل الخوارج من العراق؟ «من جوانبها الجغرافية والتاريخية والحديثية والفكرية، يمكن القول إن البحث في نسبة الخوارج إلى العراق لا يصح أن يُبنى على مجرد اشتهار العراق في التاريخ الإسلامي بظهور عدد من فرق الخوارج فيه، ولا على كثرة الأحداث التي وقعت بينهم وبين السلطة الإسلامية في بعض مراحله، وإنما لا بد من التمييز بين موطن النشأة الأولى، ومواضع الانتشار اللاحق، والجهة الجغرافية التي نسبت إليها بعض النصوص النبوية الفتن وأهلها.

وقد كشفت الدراسة من خلال فصولها ومباحثها عن جملة من النتائج التي تسهم في تحرير هذه المسألة، ويمكن إجمال أهمها فيما يأتي:

أولًا: نتائج الدراسة المتعلقة بالعراق :

ظهر من خلال دراسة تسمية العراق وحدوده وتاريخه قبل الفتح الإسلامي وبعده : أن اسم العراق كان يطلق في المصادر الجغرافية والتاريخية على إقليم

معروف بحدوده وخصائصه الجغرافية، وأنه لم يكن مجرد تسمية لمدينة واحدة، ولا لجهة عامة تشمل جميع المناطق الواقعة شرق مكة.

كما أن دراسة العراق قبل الفتح الإسلامي تكشف عن خصوصيته الجغرافية والحضارية، وأنه كان إقليمًا متميزًا في المشرق، له مدنه ومراكزه الحضارية الكبرى، ثم دخل في الدولة الإسلامية بعد الفتح، ونشأت فيه أمصار جديدة، كان من أبرزها الكوفة والبصرة، وأصبحتا مركزين عسكريين وسياسيين وعلميين مهمين في التاريخ الإسلامي.

وهذا التمييز مهم في قضية البحث؛ لأن العراق بوصفه إقليمًا جغرافيًا وتاريخيًا لا ينبغي أن يُخلط بالجهات الأخرى التي تقع في المشرق أو شرق مكة، ولا سيما نجد.

ثانيًا: نتائج الدراسة المتعلقة بنجد :

أظهرت الدراسة أن لفظ نجد في الاستعمال العربي والإسلامي القديم ذو مدلول جغرافي، وليس اسمًا لمدينة واحدة أو لإقليم سياسي محدد بالحدود المعروفة في العصور المتأخرة.

وقد استعمل اللغويون والجغرافيون لفظ نجد للدلالة على الأرض المرتفعة في مقابل تهامة، ثم اتسع استعمال الاسم بحسب السياق الجغرافي والتاريخي، ولذلك فإن تحديد المراد بنجد في النصوص النبوية لا يصح أن يكون اعتمادًا على

المفهوم الإداري الحديث، وإنما ينبغي الرجوع إلى الاستعمال العربي القديم، ومواقع البلدان والطرق، ونصوص الجغرافيين والمحدثين وشراح الحديث.

كما تبين أن نجد كانت جهة جغرافية معروفة في العهد النبوي، وأن لها طريقًا متميزًا إلى مكة، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم قرن المنازل ميقاتًا لأهل نجد.

ثالثًا: التمييز الجغرافي بين العراق ونجد :

من أهم النتائج التي كشفت عنها الدراسة أن النصوص المتعلقة بالمواقيت تقدم قرينة جغرافية ظاهرة على التمييز بين العراق ونجد.

فقد ثبت في الحديث الصحيح: « وَقَّتَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل المدينة ذا الحليفة، ولأهل الشام الجحفة، ولأهل نجد قرن المنازل، ولأهل اليمن يلملم » .

وثبت في الروايات الواردة في ميقات أهل العراق توقيت ذات عِرْق لهم.

وتزداد دلالة هذا التفريق وضوحًا في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، حين قال أهل العراق لعمر رضي الله عنه عن قرن المنازل: « وهو جور عن طريقنا » ، فأمرهم عمر رضي الله عنه أن ينظروا : « حذوها من طريقكم » ، فجعل لهم ذات عرق.

وهذه الرواية ذات أهمية بالغة في تحرير المسألة؛ لأنها لا تكتفي بذكر ميقاتين مختلفين، بل تشير صراحة إلى اختلاف الطريق الذي يسلكه أهل العراق عن الطريق الذي يسلكه أهل نجد.

ومن ثم فإن دراسة المواقيت تؤكد أن العراق ونجد كانا جهتين متميزتين في التصور الجغرافي للنصوص الإسلامية المبكرة، وأنه لا يصح جعل أحدهما مرادفًا للآخر، أو تفسير أحد الاسمين بالآخر من غير دليل.

رابعًا: الخوارج والنشأة الأولى :

أظهرت دراسة الأصول الفكرية للخوارج أن ظهور هذه الفرقة ارتبط بحدث تاريخي محدد في الفتنة التي وقعت في عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن أصل تسميتهم ارتبط بخروجهم على علي رضي الله عنه بعد قضية التحكيم ، ومن المهم في هذا السياق التفريق بين موضع نشأة الحركة الخارجة الأولى وبين المواضع التي انتقل إليها الخوارج بعد ذلك.

فقد ارتبطت بدايات الخوارج بجماعة ظهرت في سياق أحداث الفتنة، ثم انتقلت إلى مواضع متعددة، وكان للعراق دور مهم في تاريخهم اللاحق، ولا سيما في الكوفة وما حولها، ثم ظهرت لهم حركات وتمردات في مناطق أخرى من العالم الإسلامي.

وعليه، فإن وجود الخوارج في العراق، وكثرة حركاتهم فيه، لا يكفي وحده لإثبات أن العراق هو المراد بكل نص نبوي ورد فيه ذكر جهة المشرق أو نجد، كما لا يصح تحويل العراق إلى وصف ملازم للخوارج في جميع مراحل تاريخهم.

خامسًا: الأعراب وحاضنة الخوارج :

أظهرت الدراسة أهمية النظر في البيئة الاجتماعية والسياسية التي نشأت فيها الحركات الخارجية، وعدم اختزال المسألة في الموقع الجغرافي وحده.

فقد كان للأعراب والقبائل المتنقلة والبيئات التي اتسمت بضعف الاستقرار السياسي والعلمي دور في بعض مراحل ظهور الحركات الخارجية وانتشارها، ولذلك ينبغي عند تفسير نشأة الخوارج دراسة العوامل الفكرية والاجتماعية والسياسية والقبلية مجتمعة، لا الاقتصار على عامل المكان.

ومن هنا فإن السؤال عن العراق لا ينبغي أن يتحول إلى سؤال عن الأرض فقط، بل ينبغي أن يُبحث كذلك في من نشأ فيها، وكيف نشأت الحركة، وما الظروف التي ساعدت على انتشارها.

سادسًا: العراق والخوارج في التاريخ الإسلامي :

ثبت من خلال تتبع قادة الخوارج ورجالاتهم وحركاتهم أن العراق كان من أهم المراكز التي ظهر فيها الخوارج وانتشرت فيها حركاتهم، ولا سيما بعد الفتنة

الكبرى ، وكانت الكوفة والبصرة من أهم المراكز التي شهدت نشاطًا للخوارج، ثم خرجت منهم جماعات متعددة، واختلفت اتجاهاتهم ومواقفهم وفرقهم.

إلا أن هذا الحضور التاريخي لا يعني أن الخوارج ظاهرة عراقية خالصة؛ فقد انتشروا في الحجاز والجزيرة العربية وعُمان واليمن وخراسان والمغرب وغيرها، وظهرت لهم فرق متعددة ذات اتجاهات مختلفة.

ومن ثم فإن نسبة الخوارج إلى العراق باعتبار أن العراق كان أحد أهم مواطن نشاطهم أمر تاريخي يمكن إثباته، أما جعل العراق أصلًا جغرافيًا جامعًا لكل الخوارج فذلك يحتاج إلى دليل مستقل، ولا يكفي فيه مجرد الانتشار التاريخي.

سابعًا: العراق في السنة النبوية :

أما دراسة ذكر العراق في السنة النبوية فتحتاج إلى قدر كبير من التحرير؛ إذ ينبغي التمييز بين ما ورد بلفظ العراق صراحةً، وبين ما ورد بألفاظ أخرى مثل المشرق، ونجد، وقرن الشمس، وجهة المشرق.

وهذه التفرقة ضرورية؛ لأن تفسير لفظ جغرافي بلفظ آخر يحتاج إلى قرينة معتبرة، ولا يصح الانتقال من المشرق إلى العراق، أو من نجد إلى العراق لمجرد اشتراك الجهات في كونها تقع شرق مكة.

وقد أظهر البحث أن بعض الروايات تتحدث عن العراق بوصفه جهة أو إقليمًا معروفًا، في حين جاءت روايات أخرى بلفظ نجد، ولا يصح حمل أحد اللفظين على الآخر إلا بدليل.

ثامنًا: دلالة المواقيت في تحرير محل النزاع :

تُعد دراسة المواقيت من أقوى القرائن التي انتهى إليها البحث في التمييز بين العراق ونجد ، فالنبي صلى الله عليه وسلم جعل قرن المنازل ميقاتًا لأهل نجد، وجاءت الروايات في ذات عرق ميقاتًا لأهل العراق .ثم جاء حديث عمر رضي الله عنه ليؤكد التباين في الطريق، حين وصف أهل العراق قرنًا بأنه : جور عن طريقنا.

وهذا يدل على أن أهل نجد وأهل العراق لم يكونوا يسلكون طريقًا واحدًا إلى مكة، وأن الجهتين كانتا متميزتين في التصور الجغرافي للقدوم إلى الحرم، وعليه، فإن العراق يختلف عن نجد اختلافًا جغرافيًا ظاهرًا، ولا يصح جعل نجد اسمًا للعراق، ولا العراق اسمًا لنجد، ولا تفسير أحدهما بالآخر لمجرد وقوعهما في جهة المشرق بالنسبة إلى مكة.

تاسعًا: الجواب عن سؤال الكتاب: هل الخوارج من العراق؟

بعد جمع النتائج السابقة، يظهر أن الجواب عن سؤال الكتاب يحتاج إلى التفصيل:

إن أريد بقولنا «الخوارج من العراق» أن العراق كان من أهم المواطن التي ظهر فيها الخوارج وانتشرت فيها حركاتهم، فهذا ثابت تاريخيًا، ولا إشكال فيه.، أما إذا أريد بذلك أن العراق هو الموضع الذي عناه النبي صلى الله عليه وسلم في كل حديث ورد فيه ذكر نجد أو جهة المشرق عند الحديث عن الفتن والخوارج، فهذا لا يثبت بمجرد وجود الخوارج في العراق، بل يحتاج إلى دليل مستقل يثبت أن المراد الجغرافي بالنص هو العراق تحديدًا.

وبعبارة أخرى :وجود الخوارج في العراق حقيقة تاريخية، أما كون العراق هو المراد في كل نص نبوي يتحدث عن جهة المشرق أو نجد فدعوى أخرى تحتاج إلى إثبات.

وهنا يظهر الفرق المنهجي بين التاريخ والجغرافيا والحديث؛ فلا يجوز أن يُستدل بانتشار الخوارج في العراق في القرن الأول والثاني على أن كل نص سابق أو معاصر يشير إلى جهة المشرق كان يقصد العراق، كما لا يجوز أن يُستدل بذكر العراق في بعض الروايات على أن كل ما ورد في نجد يراد به العراق.

عاشرًا: النتيجة النهائية:

تكشف الدراسة في مجموعها عن ضرورة التعامل مع قضية نسبة الخوارج إلى العراق من خلال ثلاثة مستويات مترابطة ولكنها غير متطابقة:

١. المستوى الجغرافي :وهو تحديد معنى العراق ونجد وموقع كل منهما وحدوده في الاستعمال العربي والإسلامي القديم.

٢. المستوى التاريخي :وهو تحديد المواضع التي نشأ فيها الخوارج وانتشروا فيها، ومراحل انتقالهم من مكان إلى آخر.

٣. المستوى الحديثي :وهو تحديد الألفاظ التي وردت في السنة، وتمييز ما نص على العراق صراحةً عما ذكر المشرق أو نجد أو غيرهما، ثم النظر في القرائن التي تحدد المراد.

وبهذا المنهج يتبين أن العراق ونجد اسمان لجهتين جغرافيتين متميزتين في المصادر الإسلامية، وأن المواقيت النبوية تقدم شاهدًا واضحًا على هذا التمايز؛ فقد كان لأهل نجد ميقاتهم المعروف بقرن المنازل، ولأهل العراق ميقاتهم المعروف بذات عرق، كما أن حديث عمر رضي الله عنه أظهر اختلاف الطريقين بوضوح.

وعليه، فإن انتشار الخوارج في العراق لا يساوي القول بأن العراق هو أصل الخوارج أو أن كل إشارة نبوية إلى جهة المشرق أو نجد تعني العراق، وإنما ينبغي

التفريق بين مكان نشأة الخوارج الأولى، ومواطن انتشارهم التاريخي، والمدلول الجغرافي للألفاظ الواردة في السنة النبوية.

وإذا ثبت هذا التفريق، فإن كثيرًا من الإشكالات التي نشأت حول نسبة الخوارج إلى العراق تزول؛ إذ لا يصح أن تُحمل النصوص النبوية على نتائج تاريخية لاحقة دون قرينة، ولا أن يُجعل انتشار فرقة في إقليم معين دليلًا على أن ذلك الإقليم هو المراد في كل نص سابق يتحدث عن الفتن وأهلها.

والذي يخلص إليه البحث أن العراق كان بالفعل أحد أهم مراكز الخوارج في التاريخ الإسلامي، ولا سيما في مراحلهم الأولى وما تلاها، لكن هذه الحقيقة التاريخية لا تكفي وحدها لإثبات أن الخوارج الذين أخبر عنهم النبي صلى الله عليه وسلم في نصوص الفتن يُنسبون إلى العراق من حيث الدلالة الجغرافية، بل لا بد من دراسة النص النبوي نفسه، وتحديد الجهة التي يشير إليها، ومقارنتها بالمعطيات الجغرافية والتاريخية الثابتة.

والله تعالى أعلم، وصلِّ الله وسلم وبارك على نبينا محمد،

وعلى آله وصحبه أجمعين.

المحتويات